﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

[الوَاقِعَة: 13 - 26]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بلاغة التَّدرُّج من الإجمال إلى التَّفصيل في وصف السّابقين

لمّا ذَكرت الآيات السّابقة الأصناف الثَّلاثة وخُتمت بذكرِ السّابقين، وأُجمل حالهم بأنَّهم المقرَّبون في جنّات النَّعيم، جاء ما بعد ذلك تفصيلًا لما أُجمل، وشرحًا لمقامهم الشَّريف، وبيانًا لوجه استحقاقهم لهذا القرب، وما أُعِدّ لهم من كرامة، فجاء النَّظم القرآنيُّ على عادته البديعة في التَّمهيد أوَّلًا بالإجمال، ثمَّ التَّعريج على التَّفصيل، وذلك أبلغ في التَّشويق، وأقوى في التَّأثير على السّامع. فكأنَّ المتلقّي لمّا سمع ذكر السّابقين، وتوكيد سبقهم بتكرار الاسم، ثمَّ ختم حالهم بذكر قربهم من الله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثُلَّةٌ﴾: الثُّلَّةُ: الجماعةُ من النّاسِ[1]. لا واحدَ لها من لفظها. وقيل: هم الجماعةُ الكثيرةُ، والثُّلة: الأُمَّة من النّاس الكثيرة[2]. والثُّلَّةُ في السّياق القرآنيِّ يُراد بها الكثرة الغالبة بحسب المقابلة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثلّ).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

فلمّا ذكر بعدها قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ المراد بالثلّة الكثرة، ويُراد بها النِّصف، كما جاء في حقِّ أصحاب اليمين، إذ جاء قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وهذان الموضعان في القرآن الكريم في هذه السّورة جاء لكلٍّ منهما دلالة بحسب المقابلة.

2) ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾: "منسوجة نسجًا مضاعفًا منضودة داخلًا بعضها في بعض مقارب النَّسج معجبًا كالدِّرع، لكن نسجها بالذَّهب مفصَّلًا بالجوهر من الدُّرِّ والياقوت"[1]. و"عَلى سُرُرٍ مَوضونَةٍ، أي: منسوجة. كأنَّ بعضها أُدخِل في بعض، أو نُضِّد بعضها على بعض. ومنه قيل للدّرع: موضونة. ومنه قيل: وضين النّاقة. وهو بطان من سيور يُرصَّع ويُدخَل بعضه في بعض"[2]؛ فالسُّرُر الموضونة هي سررٌ مُتقنة الصَّنعة، مشبَّكة النَّسج، قد زُيِّنَت وحُلّيَت بصفوفٍ من الذَّهب والجوهر، وأتقن صانعُها نسجها، كما تُفتل الحبال المُحكَمة، فجاء بناءُ نسجها مُتماسكًا قويًّا جميلًا، لا رخاوة فيه ولا تفكُّك.

3) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: المُتَّكَأ: المكان الَّذي يتَّكأ عليه، والمخدّة: المتَّكأ عليها، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]؛ قيل: طعاما متناولا، من قولك: اتَّكأ على كذا فأكله[3].

ومعنى ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾: جالسين على تلك السُّرُر في هيئةِ استرخاءٍ وراحة، قد استندوا إليها واتَّخذوها مقامًا للطُّمأنينة.

4) ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: الخُلدُ: من أسماء الجنان، والخُلود: البقاء فيها، وهم فيها خالِدونَ ومُخَلَّدون. وتفسير ولدانٌ مُخَلَّدونَ أي: مُقَرَّطون[4] بالخلَدة، وهي الَّتي توضع في الأذن، أو أن يكون المعنى الخلود في الجنّة على هيئة الأولاد، فهي كناية عن بقائهم في هذا السِّنِّ، ولا مانع أن يكون المرادُ: الأمرين.

فالمراد بـ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أنَّهم خُدّامُ أهل الجنَّة، خلقهم الله تعالى على هيئة الولدان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 406.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 445.
(3) الراغب، المفردات: (تكأ).
(4) الخليل، العين: (خلد).

الصّغار، حِسان الوجوه، ناعمي الأبدان، دائمةٍ نضارتُهم، لا يفنون، ولا يكبرون، ولا يتبدّلون، بل هم على صورةٍ خالدةٍ في كمال الحسن والطَّراوة، تشرح الصَّدر، وتبعث الأنس.

5) ﴿يُنزِفُونَ﴾: أنزف الرَّجل: إذا ذهب عقله من السُّكر[1]، فالمراد في الآية الكريمة أن شراب الجنّة، وإن شُرِب في أكواب وأباريق وكؤوس كما يُشرب خمر الدُّنيا، إلّا أنّه لا يُفضي إلى ذهاب العقل، ولا يوقع في سُكر، ولا يُحدِث صُداعًا، ولا خمارًا، ولا ندمًا، بل هو شرابٌ لذيذٌ نقيّ، يُبهج النَّفس، ولا يُكدّرها.

6) ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: جذر الكلمة (كنّ)؛ كننت الشَّيء إذا خبأته وسترته أكنّه كُنّا وكنونا فهوَ مَكنون. وكلُّ شَيء سترت بهِ شَيئًا فهوَ كنان لَهُ[2]. فالمكنون في لغة العرب هو المصون المستور، يُقال: كننت الشَّيء إذا سترته، ومنه اللُّؤلؤ المكنون، أي المخبوء في أصدافه. ومعنى ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: الَّذي لم يُخرج من صَدَفِه، ولم تمسّه يد، ولم تطّلع عليه عين، فهو باقٍ على صفائه الطَّبيعيّ، محفوظٌ عن الكدر والتَّلويث والابتذال، سليم اللَّون، نقيّ الجوهر، تامّ الحُسن.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نعيم المقرّبين ووصف الحور العين كأمثال اللُّؤلؤ المكنون

تصويرٌ لمقام السّابقين من عباد الله، وما أعدّه لهم في الجنَّة من مجلسٍ رفيع، ونعيمٍ وافر، وخدمةٍ دائمة، وطعامٍ وشرابٍ لا يُكدّر، وزوجاتٍ في كمال الطُّهر والجمال، وسَكينةٍ تحفّ المجلس، لا لغو فيه ولا معصية، بل هو مقام السَّلام والطُّمأنينة، وذلك كلُّه جزاء ما استقرّ في نفوسهم من صدق العمل، وكمال السَّير إلى الله، في دنيا زائلة، فكان الجزاء في دار لا تزول.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نزف).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (كنن).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة البدء بتفصيل أحوال السّابقين دون أصحاب الميمنة:

تأخيرُ السّابقين عند الإجمال توطئة للابتداءِ بذكرِهم عند التّفصيل

بُدِئَ بتفصيلِ حالِ السّابقينَ دونَ تفصيلِ حالِ أصحابِ المَيمَنَةِ، معَ أنّهم قد ذُكِروا قبلَهم في التّرتيبِ الإجماليِّ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، وذلكَ لما اقتضاهُ المقامُ من التّنويهِ بشأنِ السّابقينَ، وتقديمِ ذِكرِهم تَقديمَ العنايةِ والإعلاءِ؛ لأنّهم خُلاصةُ المُفلِحينَ، ونُخبةُ أهلِ القُربِ، ومَن خَصَّهُمُ اللهُ بالوسيلةِ العظمى من مراتبِ الجنّاتِ، فكانَت حالُهم أحقَّ بالبَسطِ والتّقديمِ، إذ كانت ذروَةَ المقاماتِ الّتي تُؤهِّلُ أصحابَها لأن يكونوا منَ المُقَرَّبينَ.

فبعد بيان أقسام الأزواج لم يعد إلى بيان حالهم على ترتيب ذكرهم، بل بيَّن حال السّابقين مع أنَّه أخَّرهم، وأخَّر ذكر أصحاب الشِّمال مع أنَّه قدَّمهم أوَّلًا في الذِّكر على السّابقين، إذ قدّم من ينفعه ذكر الأهوال، وأخَّر من لا يختلف حاله بالخوف والرَّجاء، وأمّا عند البيان فذكر السّابق لفضيلته وفضيلة حاله[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿ثُلَّةٌ﴾:

التَّناغم البلاغيُّ بين التَّحديد الكيفيِّ والتَّمييز النَّوعيِّ

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ثُلَّةٌ﴾ في قوله تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، دونَ أن يَقولَ: (جَماعةٌ) أو (فِئةٌ) أو ما يُقارِبُها مِنَ الألفاظِ العامَّةِ، وذلكَ لِما في لفظِ ثُلَّةٍ مِن خُصوصيّةٍ في دلالَتِها، تُضفي على الموصوفِ بها مَسحَةَ فضيلةٍ، ورُقيًّا في التَّصنيفِ.

فـ﴿ثُلَّةٌ﴾ - وإن كانت في أصلِها تدلُّ على جماعةٍ منَ النّاسِ - إلّا أنّها تَختصُّ عندَ العربِ بالجماعةِ الّتي تَجتمعُ على أمرٍ فاضلٍ، كأن يكونوا نخبةً في قومِهم، أو خيارًا في جماعتِهم، بخلافِ لفظِ (جماعة) الّذي قد يُطلقُ على عامّةِ النّاسِ في جُملَةٍ واحدةٍ، مِن غيرِ دلالةٍ على التَّفاضلِ أو الامتيازِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 29/ 390.

وقد وردَ لفظُ (الثُّلَّةِ) في كلامِ العربِ لِدَلالةٍ على النُّخبةِ أو الجَماعَة من النّاس[1]، كقولِهم: (فيهم ثُلَّةٌ من كِرامِ القومِ)؛ ولذلكَ كانَ اختيارُها في هذا الموضعِ مبنيًا على مقصدٍ بلاغيٍّ يُشيرُ إلى شَرَفِ تلكَ الجماعةِ الّتي كانت منَ الأوَّلينَ، وأنّهم هُم خيارُ أهلِ زمانِهم.

أغراض تنكير لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، دونَ تعريفِها بـ (الثُّلَّة) أو إضافتِها، فإنَّهُ من نُكتِ الإيجازِ الّذي تومِئُ بِه بلاغةُ القرآنِ إلى معانٍ متعدِّدَةٍ، تتنوَّعُ بينَ الإجلالِ، والإبهامِ المَهيبِ، والدّلالةِ على القِلّةِ المنتقاةِ المخصوصة. فأوّلُ ما يُفهَمُ من التّنكيرِ الإيحاءُ بأنّ تلكَ الثُّلَّةَ ليستِ المألوفةَ عندَ النّاسِ، ولا المعرَّفةَ بينَ الخلقِ، بل هي ثُلَّةٌ مخصوصةٌ[2]، من طِرازٍ نادرٍ، تنطوي على صفوةٍ لا تُدرَكُ أقدارُها إلّا بعلمِ اللّهِ، فجاءَ التّنكيرُ تحقيقًا لهذا الإيهامِ المقصودِ، لِتَعظيمِ شأنِهم على وجهٍ غيرِ مباشرٍ.

إجمال مشوّق وتمييز مهيب لمن اصطفاهم الله في السّابقين

وثاني ما يُفادُ: الإجمالُ المشوِّقُ، إذ لم يُفصِحِ النّظمُ عن عددِ تلكَ الثُّلَّةِ، ولا عن أسمائِهم، ولا عن قبائلِهم، بل أبقاهُم في حيّزِ الإجمالِ والتّعظيمِ؛ ليُثيرَ في القلبِ التَّطلُّعَ إلى مَنزِلَتِهم، ويَبعثَ في النّفسِ رغبةً في لحاقِهم، فكانَ التّنكيرُ أبلغَ في التّشويقِ، وأدقَّ في التّوجيهِ التَّربويِّ.

وثالثُ الأغراضِ: أنَّ التّنكيرَ دالٌّ على الكثرة المستفادة من السّياق، فقوله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ كفى به دليلًا على الكثرة. والمعنى: إنَّ السّابقين من الأوّلين كثير، وهم الأمم من لدُنْ آدمَ عليه السلام إلى محمَّدٍ ﷺ ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ وهم أمّة محمَّدٍ ﷺ[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ثلة).
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

مفردةُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ بين الابتداءِ والخبريَّة:

حملُ (ثُلَّة) على الخبريَّة أرسخُ في التّجاوبِ في النّظم وأخصّ دلالة

يحتمل لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ أن يكون مبتدأً وخبرًا، وكلاهُما جائزٌ من جهةِ اللّفظِ، غيرَ أنَّ لكلِّ وجهٍ مَسربًا في المعنى ومَجرًى في التّقديرِ، فمَن رأى أنَّ ﴿ثُلَّةٌ﴾ مبتدأٌ، جعلَ ما بعدها - أعني: ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ - جارًّا ومجرورًا خبرًا عن المبتدأ، على القاعدةِ المشهورةِ، ويكونُ قد استُؤنِفَ به الكلامُ بعدَ الانتهاءِ مِن ذكرِ المقرَّبينَ، فكأنَّه قالَ: في تلكَ الجِنانِ ثُلَّةٌ منَ الأوَّلينَ، ويكونُ هذا من قبيلِ استئنافِ التّوزيعِ بعدَ تقريرِ الفضلِ.

وأمّا من نَزعَ إلى أنَّ ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، فالتّقديرُ عنده: هم ثُلَّةٌ منَ الأوَّلينَ[1]. أي: إنَّ المقَرَّبينَ الّذينَ ذُكروا آنفًا، هُم هذه الثُّلَّةُ المُشارُ إليها، فيكونُ ذلكَ من بابِ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنّ اسمَ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قد دلَّ على المقرَّبينَ، فجيءَ بعدَه بـ﴿ثُلَّةٌ﴾ مع وصفِها لتعيينِهم.، وأنّ السّابقين ثلَّة من الأوَّلين وقليل من الآخرين، وهذا الاعتراض يقصد منه التَّنويه بصنف السّابقين وتفضيلهم بطريق الكناية عن ذلك بلفظي ﴿ثُلَّةٌ﴾ و﴿وَقَلِيلٌ﴾ المشعرَين بأنَّهم قُلٌّ من كُثرٍ، فيستلزم ذلك أنَّهم صنفٌ عزيزٌ نفيسٌ لما عُهد في العرف من قلَّة الأشياء النَّفيسة[2].

ويُستأنَسُ لهذا التّوجيهِ الثّاني، بما في قولِه تعالى بعدَه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فإنّه جارٍ على نمطِ التّوزيعِ، فكأنَّ كِلا العبارتين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، خبرانِ عن المقرَّبينَ، يوزَّعون بهما بحسبِ الزّمانِ.

والأقربُ في بنيةِ النَّظمِ القرآنيِّ: أن يكونَ الوجهُ الثّاني هو الأنسبُ؛ لما فيه من ربطِ التّوزيعِ بالفضلِ لا بالابتداءِ الإنشائيّ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.

فيجيءُ التّقديرُ: أولَئِكَ المُقَرَّبونَ في جَنَّتِ النَّعيمِ هُم ثُلَّةٌ مِّنَ الأوَّلينَ، وقَليلٌ مِّنَ الآخِرينَ، فيَستقيمُ السّياقُ في ذِكرِ الكثرةِ والقِلّةِ في طبقةِ المقرَّبينَ.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

التّبعيض مستفادٌ من حرف (مِن) ولفظ (ثُلَّة)

﴿مِّنَ﴾ الواردةُ في قولِهِ تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ للتّبعيضِ، فهُم جزءٌ من جماعةِ الأوّلينَ أو الآخرينَ، وهذا ما ذهب إليه سيبويه؛ فاقتضى أنَّ السّابقين في الأزمنة الماضية وزمان الإسلام حاضِره ومستقبله بعضٌ من كلٍّ، والبعضيَّة تقتضي القلَّة النِّسبيَّة ولفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ مشعرٌ بذلك ولفظ (قليل) صريحٌ فيه[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

الأوّلون هم جميعُ الأمم السّابقة المنذَرة دون استثناء

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، بأنَّهم معروفون لدى السّامعينَ، إمّا بالذِّكرِ السّابقِ، أو بشهرتِهم في الخطابِ الدّينيِّ، وليُعطي مدلولًا جامِعًا لمَعنى السّابقةِ والفضلِ، "فلا جرم أنَّ المراد بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأممُ الأولى كلُّها، وكان معظم تلك الأمم. أهل عنادٍ وكفرٍ، ولم يكن المؤمنون فيهم إلّا قليلًا كما تنبئ به آياتٌ كثيرة من القرآن"[2]؛ فالتّعريفُ هنا للجنسِ؛ لأنَّ الأوَّليّة هي أوَّليّة الأمم السّابقة في الوجود الزّمانيِّ، لا أوَّليّة في وصفٍ آخر، فالأوَّلون يشمل جميع الأمم السّابقة، فمنهم كانت الثلّة السّابقة إلى الإيمان.

دلالة العطف التّقابليّ بين (قليل) و﴿ثُلَّةٌ﴾:

قوبل في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بين لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ ولفظ (قليل)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الثُّلّة من الأوَّلين أكثر من القليل من الآخرين، والثُّلَّة: اسم للجماعة من النّاس مطلقًا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 291، وسيبويه، الكتاب: 2/ 307.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 290.

قليلًا كانوا أو كثيرًا[1]. ودلَّ التّقابل في الآيةِ على أنَّ المراد بالثُّلَّةِ: الأمَّة الكثيرة من النّاس، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، والمعنى: أنّ السّابقين من الأوّلين كثير، وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمَّد ﷺ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[2].

التّقابل يحمل دلالاتٍ نسبيَّةً في تحديد المقصودِ بالألفاظِ وتعيين المراد

وأمّا دَلالةُ العَطفِ التّقابُليِّ بينَ قولِهِ تَعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فهيَ ممّا يُستَخرَجُ منهُ لطيفُ الإشاراتِ وأسرارُ البلاغةِ، إذ العطفُ هنا ليسَ لمجرَّدِ الجمعِ، وإنّما هو عَطفٌ على وجهِ التّقابُلِ التّقديريِّ في العددِ، أي أنَّ هذا التّقابلَ إنّما سيقَ لإفادةِ المُغايرةِ في الكمِّ لا في الجهةِ؛ فإنَّ التّقابُلَ يُفيدُ الافتراقَ في الكمِّ، فيَدلُّ على أنَّ الثُّلَّةَ من الأوّلينَ أكثرُ عددًا من القليلِ من الآخِرينَ، وإن لم تكن هي الكثرةَ المطلقةَ، فهيَ الكثرةُ النّسبيَّةُ في هذا الموطنِ، وهذا مَقامٌ من بلاغةِ المُقابلةِ الإضافيّةِ، الّتي لا تُدرَكُ إلّا بقراءةٍ تُراعي نظمَ الجملِ وسياقَ التَّقسيمِ، وهذه النِّسبةُ البيانيّةُ تُقرّرُ معنى الامتدادِ عبرَ الأزمانِ، مع التَّفاوتِ في القلَّةِ والوفرةِ.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾:

الآخـــرون هم الأمّـة المحمَّديّة الّـتي هـي آخرُ أممِ الإسلامِ

لفظُ ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، تعريفٌ بـ (أل) الجنسيّةِ، لا العهديّةِ، والمقصودُ به جنسُ من جاءَ بعدَ الأوّلينَ من هذهِ الأمّةِ، فيَصدقُ على أهلِ الإسلامِ في العصورِ المتأخّرةِ، كما يَدخلُ فيهِ كلُّ مَن تأخّرَ زمنُه عن زمنِ الصّفوةِ الأوَّل[3].

فجاءَ تعريفُ ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ ليُقابلَ تعريفَ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ إذ قُصِدَ بهما الاستيعابُ النّسبيُّ للفريقينِ، فجُعلَ الآخرونَ معروفينَ لا بإشارةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 291.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 457.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 50.

عُرفٍ خارجيٍّ، بل بما تَقَرَّرَ في الأفهامِ من أنّ الزّمانَ ينقسمُ إلى أسبقَ وألحَقَ، فجاءَ لفظُ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ مُعَرَّفًا؛ ليُفيدَ عمومَ المتأخّرينَ في جُملَتِهم.

وهو من لطيفِ النّكتِ أن يُؤتَى بالتّعريفِ في هذا الموضعِ، فإنَّ ذكرَ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في سياقِ بيانِ المقرَّبينَ يوهمُ أنَّ الآخرينَ في الجُملةِ لم يوفَّقوا إلى بلوغِ هذهِ المنزلةِ؛ فكانَ في تعريفِهم إشعارٌ بمسؤوليّتِهم وجِدّيّةِ التّمييزِ بينهم، لا على سبيلِ التّقليلِ العدديّ فحسبُ، بل على وجهِ الإحالةِ إلى جماعةٍ يُعرَفُ تأخّرُها زمانًا أو رتبةً.

دلالة المقابلة بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

مـعـظـم السّابقين من الأوّلين لكثرة الرسل فيهم وعظيم البلاء النّازل عليهم

دلَّتِ المقابلةُ بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى ما بينهما من تغايرٍ زمانيٍّ، فالأوّلونَ هم السّابقونَ في الزّمانِ، والآخِرونَ هم المتأخّرونَ عنهُم، وقد جرتِ العادةُ عندَ العربِ في النّسَبِ أن تُقابلَ الأوّليّةُ بالآخريّةِ، ليكتملَ بذلكَ الطّرفانِ في تصوّرِ الامتدادِ الزّمنيِّ.

فجاءَ هذا التّقابلُ اللّفظيُّ ليُرَسِّخَ في الذّهنِ عموميّةَ الامتحانِ الإلهيِّ في كلِّ زمانٍ، غيرَ أنّ التّفاوتَ بينهما بيّنٌ في النّسبةِ العدديّةِ، إذ جُعلَتِ الثُّلَّةُ من الأوّلينَ، وجُعلَ القليلُ من الآخرينَ، إشارةً إلى تفاوُتِ حالِ النّاسِ في هذينِ الزّمانين، وأنَّ السّبقَ في الطّاعةِ والفضلِ أكثرُ وقوعًا في سالفِ الأزمانِ، وذلك لكثرةِ الأمم السّابقة، فكان فيهم الرُّسل والنَّبيّون والصِّدّيقون وأتباع الأنبياء، بخلاف هذه الأمّة فرسولها واحد، وأصحابه عددهم قليلٌ بالنِّسبةِ لأصحاب الرُّسل السّابقين، فضلًا أنَّ الثَّبات في الأمم السّابقة يحتاج إلى عزيمة وقوّة، فظفر في معظمها السّابقون، بخلاف أصحاب اليمين الَّذين تساووا مع الآخرين كما سيأتي.

نكتة الاعتراض:

الجواهر النَّفيسة قليلة في المعادن والسّابقون مثلها في الأمم

جاءت جملة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ اعتراضًا بيانيًّا بين الجملةِ المسوقةِ في وصفِ السّابقينَ وجزائها، أي: قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، لما في ذلك من تقريرٍ لأهمّ أوصافِهم وأظهرِ خصائصِهم، وهو كونُهم ثُلّةً من الأوّلينَ وقليلًا من الآخرينَ؛ فجاء هذا الاعتراضُ؛ لإفادةِ النّسبةِ الإجماليّةِ في عدَدِهم، ولِتقديرِ مرتبتِهم الزّمانيّةِ، إذ في ذكرِ هذا التّفاوتِ بين الأوّلينَ والآخرينَ بيانٌ لمواقعِ السّبقِ والفضلِ من حيثُ الزّمنُ، كما أنَّه إيذانٌ بتفاوتِ استجاباتِ النّاسِ لدعوةِ الإيمانِ بحسبِ أحوالِ العصورِ.

وهذا الاعتراض يقصد منه التَّنويه بصنف السّابقين بطريق الكناية عن ذلك بلفظي ﴿ثُلَّةٌ﴾ و(قليل) المشعرَين بأنَّهم قُلٌّ من كُثر، فيستلزم ذلك أنَّهم صنف عزيز نفيس لما عهد في العرف من قلَّة الأشياء النَّفيسة[1].

وأخرج أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: لمّا نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فقال: «أنتم ثلثُ أهلِ الجنَّة، بل أنتم نِصفُ أهلِ الجنَّة وتُقاسِمونَهُمُ النِّصفَ الباقي»[2].

بلاغة تقديم ذكر نِسَبِ السّابقين على ذكر النَّعيم بخلاف أصحاب اليمين:

التّنويه بالسّابقين والتّنبيه على نعيمهم الرَّفيع

قُدِّم ذكر قولِه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ على بيانِ ما لهم من النّعيمِ، وذلك من بديعِ الأسلوبِ القرآنيِّ الّذي يجمعُ بين التّفصيلِ في التّقسيمِ والتّمهيدِ للمقامِ الجزائيِّ؛ ليكونَ الحديثُ عن النّعيمِ مسبوقًا ببيانِ حالِ أهلِه، فيزدادَ وقعُ الجزاءِ في نفسِ السّامعِ، وتتأكّدَ منزلتُهم في تصوّرِه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.

(2) المُزينيّ، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 2/ 941، ويُنظر: أحمد، المسند، حديث رقم: (9080).

وقد قُدّمَتِ الجملةُ الاعتراضيّةُ لما فيها من تمهيدٍ تمجيديٍّ لأهلِ هذه المرتبةِ، ولِما في هذا الاعتراض من الإشعار بالعزَّة، قُدِّمَ على ذِكرِ ما لَهُم مِنَ النَّعيمِ لِلإشارَةِ إلى عَظيمِ كَيفيَّتِهِ المُناسِبَةِ لِوَصفِهِم بـ (السّابِقينَ) بخِلافِ ما يَأتي في أصحابِ اليَمينِ[1]. كأنّما أُبرزتِ النّسبةُ العدديّةُ لهم قبلَ التّنويهِ بجزائهم، ليُعلَمَ أنَّ ذلك النّعيمَ الّذي سيُذكرُ لهم، إنّما هو جزاءُ طائفةٍ متميّزةٍ بالاصطفاءِ والزّمانِ والقلّةِ؛ فهو تنويهٌ وتنبيهٌ، وإشعارٌ بأنَّ ما كان لهم لا يكون لعمومِ أصحاب اليمين.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

علوُّ المقام ورفعةُ الشّأن صفة الاتّكاء

وأمّا بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ فذلكَ من محاسنِ البيانِ القرآنيِّ، إذ لم يُكتَفَ بمجرَّدِ ذكرِ السّررِ مقرًّا للمقرّبينَ، بل عُبِّرَ عن حالِهم بأنَّهم فوقَ السّررِ، لا إليها ولا عندها، فاستُعملَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ وهو حرفُ الاستعلاءِ الحقيقيِّ[2]؛ ليُفيدَ الإشعارَ برفعةِ مكانهم، وعلوِّ منزلتِهم، وتربُّعِهم في مجلسِ الكرامةِ.

فليس المرادُ مجرّدَ الجلوسِ، بل هو جلوسُ المتربِّعِ المرتفعِ المتمكِّنِ في موضعِ الإكرامِ والرّاحةِ، وهو أبلغُ من أن يُقالَ: (في سررٍ)، أو (عند سررٍ)؛ لأنّ ﴿عَلَىٰ﴾ تُفيدُ التَّمكُّنَ والاستقرارَ في العلوِّ، وهي هيئةُ الملوكِ وأهلِ السّيادةِ.

نكتة جمع ﴿سُرُرٍ﴾:

كثرةُ النّعيم المقيم تعريضٌ بنعيم أهلِ الأرض

السُّرر: جمع سرير، وهو كرسيٌّ طويل متَّسع يجلس عليه المُتَّكِئ والمضطجع، ويتَّخذه الملوك من ذهبٍ ومن فضَّة ومن عاجٍ. والسَّرير مجلس العظماء والملوك[3]، وجُمِع لَفظُ ﴿سُرُرٍ﴾ ونُكِّر؛ للإيماءِ إلَى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 369، والمُبرّد، المُقتضب: 1/ 46.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.

عَظَمَةِ النَّعيم وتَعدُّدِ مَظاهِرِه، وذَلِكَ مِن بَدائِعِ التَّناسُبِ بَينَ اللَّفظِ والسّياقِ. فإنَّ جَمعَ ﴿سُرُرٍ﴾ يُشعِرُ بكَثرَةِ ما أُعِدَّ لَهُم مِن مَجالِسِ التَّكريمِ، ويُناسِبُ كَثرَةَ تَقَلُّبِهِم في النَّعيمِ، ويُفيدُ تَجَدُّدَ المَقامِ وتَغَيُّرَ المَجلِسِ على وجهٍ يُثيرُ المَسَرَّةَ والرّاحَةَ.

نكتة تنكير لفظ ﴿سُرُرٍ﴾:

تنكيرُ المجموعِ إيماءٌ إلى التّنوُّعِ الكثير والتَّعدُّد الوفير

نُكِّر لفظ ﴿سُرُرٍ﴾ للنّوعِ، وللتَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فهي سُرُرٌ عَظيمَةٌ، بالِغَةٌ في الحُسنِ والزّينَةِ مبلغًا شريفًا، لا يُشبِهُها في الدُّنيا سَريرٌ، ولا يَبلُغُ وصفَها خَيالٌ ولا تَصَوُّرٌ، وتنكير المجموع ﴿سُرُرٍ﴾ يُفيدُ تَنَوُّعًا في الأشكالِ، فكَأنَّ سُرُرَهُم لَيسَت على نَمَطٍ واحِدٍ، بَل كُلُّ سَريرٍ لَهُ زينَةٌ وصِفَةٌ ومَقامٌ، ففي ذَلِكَ تَصويرٌ لِلتَّنعيمِ المُطلَقِ الَّذي لا يُحَدُّ ولا يُحصَرُ.

وَفي الجَمعِ مَعَ التَّنكيرِ جَمعٌ بَينَ التَّكثيرِ والتَّفخيمِ، وهوَ مِن أبلَغِ أنواعِ التَّصويرِ القُرآنيِّ في مَواقِفِ الإجلالِ.

بلاغة استعمال اللّفظ الغريب ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾:

الإيماءُ إلى إحكامِ النّسجِ وغلاءِ المنسوجِ بتصويرٍ بديعٍ

الوَضنُ: نَسجُ الدِّرعِ، ويُستَعارُ لِكُلِّ نَسجٍ مُحكَمٍ[1]، والمَوضونَةُ في قوله تَعالَى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾: المَسبوكُ بَعضُها ببَعضٍ كَما تُسبَكُ حَلَقُ الدُّروعِ، وإنَّما توضَنُ سُطوحُها وهيَ ما بَينَ سوقِها الأربَعِ حَيثُ تُلقَى عَلَيها الطَّنافِسُ أوِ الزَّرابيُّ لِلجُلوسِ والاضطِجاعِ ليَكونَ ذَلِكَ المَفرَشُ وثيرًا فلا يُؤلِمُ المُضطَجِعَ ولا الجالِسَ. وفَسَّرَ بَعضُهُم ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ بمَرمولَةٍ، أي مَنسوجَةٍ بقُضبانِ الذَّهَبِ[2] "[3]، وإنَّما سمَّت العربُ وضينَ النّاقة وضينًا؛ لأنَّهُ منسوجٌ[4]. ما يُشيرُ إلَى أنَّ تِلكَ السُّرُرَ قَد نُسِجَت بحَبكٍ مُحكَمٍ، مُتقَنِ التَّركيبِ، على نَسَقٍ

(1) الراغب، المفردات: 1/ 874.
(2) نافع بن الأزرق، غريب القرآن في شعر العرب، ص: 201.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 122.

فاخِرٍ، كأنَّما خُلقت موضونة، يَجمَعُ بَينَ جَمالِ الشَّكلِ وغَلاءِ المادَّةِ، إذ إنَّ (الوَضن) الَّذي تُحاكُ بِهِ هذِهِ السُّرُرُ هوَ مِن خُيوطِ الذَّهَبِ أوِ الفِضَّةِ أوِ الحَريرِ.

وَإنَّ في قِلَّةِ وُرودِ هذِهِ اللَّفظَةِ في سائِرِ الكَلامِ العَرَبيِّ ما يُثيرُ في النَّفسِ تَوَقُّفًا وتَدَبُّرًا، ويوَلِّدُ إحساسًا بعَظَمَةِ المَوصوفِ، وهوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ سياقِ الثَّناءِ على المُقَرَّبينَ ومَجالِسِهِمُ العاليَةِ في جَنّاتِ النَّعيمِ. فكانَ التَّعبيرُ بـ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ لفظًا نادِرًا في وقعِهِ، بَليغًا في دلالَتِهِ، يُؤَكِّدُ على نُعوتِ الفَخامَةِ والإتقانِ في تَصويرِ مَجالِسِ المُقَرَّبينَ الأخيارِ.

دلالة استعمال مفردة الاتِّكاء:

الاتِّكاء: اضطجاعٌ مع تباعد أعلى الجنب، والاعتمادِ على المِرفَق[1]، وفي التَّعبيرِ بِهِ بصيغَةِ اسم الفاعِلِ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، دلالَةٌ عَلى حالٍ منَ الرّاحَةِ والسُّرورِ، إذِ الاتِّكاءُ لا يَكونُ إلّا في مَقامٍ مُترفٍ، ولا يُتصَوَّرُ إلّا مَعَ الطُّمأنينَةِ ورَفاهيَةِ الحالِ، فهوَ مِمّا يُصوِّرُ النّعيمَ بمظهَرِهِ المَلموسِ في أذهانِ النّاسِ. وفي اختيارِ هذِهِ الصّيغَةِ إشعارٌ بالثّباتِ والدّوامِ، لا على وجهِ الحدَثِ العارِضِ، مِمّا يُناسِبُ خُلودَ المُقَرَّبينَ في دارِ الكرامَةِ. كَما أنّ قَولَهُ: (عَلَيها)، يُفيدُ تمكينَ الاتّكاءِ واستقرارَهُ، فهُم مُتَّكِئونَ عَلى سُرُرٍ لا يَعتريها نَصبٌ ولا تعبٌ، بَل في راحَةٍ تامَّةٍ، وأنسٍ دائمٍ.

الاتِّكاءُ تصويرٌ لمشهدِ غياب الأعباء وانتهاء الهموم

فائدة الحال ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ جمعًا:

لفظ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضَّمير في ﴿عَلَيْهَا﴾، أي: استقرّوا عليها متَّكئين[2]. وفي إيرادِ الحالِ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ بصيغَةِ الجَمعِ، دلالَةٌ بليغَةٌ عَلى اشتراكِ جَميعِ السّابقينَ المُقَرَّبينَ في ذلِكَ النَّعيمِ، وأنَّهُ حالٌ

الاسترخاء والرّاحة حال الجميع فلا هموم تعتري آحادَهم ولا غموم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

عامٌّ لَهُم لا يَختَصُّ ببَعضِهِم دونَ بَعضٍ. فالجَمعُ يُفيدُ أنّهم في مَجلِسٍ واحِدٍ، وحالٍ واحِدَةٍ، ممّا يُحقِّقُ وصفَ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ بَعدَهُ، ويُصَوِّرُ لَنا جَماعَتَهُم وهُم في سُرورٍ وأنسٍ ومُحادَثَةٍ. وفي ذلِكَ إشعارٌ بكمالِ الأُنسِ ورُؤيةِ الأحِبّةِ وأنّهُم لَم يُفرِّق بَينَهُم تَبايُنُ المَراتِبِ في القُربِ، فكَما استَبَقوا في الدُّنيا، جُمِعوا في دارِ النّعيمِ، في سَكينَةٍ وتكامُلٍ.

بلاغة حرف الاستعلاء:

الاستعلاء المكانيُّ والمعنويُّ في وصف نعيم المقرّبين

في قَولِهِ تَعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ جاءَ حَرفُ الاستِعلاءِ (عَلى) ليُصوِّرَ حالًا ساميَةً مِنَ النّعيمِ، إذِ الجُلوسُ عَلى السُّرُرِ مَظهَرٌ للعِزِّ والرِّفعةِ، وهوَ أليقُ بالمُقَرَّبينَ الّذينَ بَلَغوا غايَةَ الكرامَةِ. فاستِعمالُ (عَلى) دونَ (في) أو (عِندَ) يُشيرُ إلى التّعالي والتّمكُّنِ، وفيهِ رَمزٌ إلى استِعلاءِ حالِهِم في الجَنَّةِ، كَما استَعلَوا بإيمانِهِم وسَعيِهِم في الدُّنيا. وهذِهِ الدِّقَّةُ في الاستِعمالِ تُناسِبُ رَوعَةَ النَّظمِ القُرآنيِّ وبلاغَتَهُ.

بلاغة المجاز في مرجع الضَّمير:

احتمال المجاز بالحذف أو المرسل لنكتة الإيجاز والمبالغة

مرجعُ الضّمير في قَولِهِ تَعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ عائدٌ على السُّرُرِ في الظّاهِرِ، ومَعلومٌ أنَّ الاتِّكاءَ في عُرفِ العَرَبِ لا يَكونُ على السَّريرِ بنَفسِهِ، بَل على ما يوضَعُ عَلَيهِ مِنَ النَّمارِقِ، وهيَ الوساداتُ والمُتَّكَآتُ، فكانَ هَذا مَجازًا دَقيقًا، إمّا على طَريقِ الحَذفِ، وإمّا على طَريقِ المَجازِ المُرسَلِ بإطلاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الحالِّ فيهِ، والمُرادُ: ما فيها، وفي هَذا التَّعبيرِ ما يُفيدُ تَفخيمًا لِتِلكَ السُّرُرِ، حَتَّى كَأنَّها نَفسَها مَوضِعُ الرّاحَةِ والرَّفاهيَةِ، فلا يُحتاجُ لِذِكرِ ما عَلَيها، إيماءً إلَى كَمالِ الزّينَةِ والهَيبَةِ فيها.

بلاغة الفصل بين الحالين بحرف الاستعلاء:

أفاد الفصل بين الحالين ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ و﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ بحرف الاستعلاء، تمكين الاتِّكاء بحرف الاستعلاء، وبيان حال الاتِّكاء في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾؛ فالتّقابل حالٌ ثانية للمقرّبين، تُبيِّن الاتِّكاء.

فائدة بيان الحال ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾:

كمال النَّعيم في مشهد الاتِّكاء والتَّقابل

أفادت الحالُ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ تكميلَ هيئةِ المجلسِ الرَّفيعِ، وإبراز سمتِ الأُنسِ والمودَّةِ فيه، فقد أفادَتِ الحالُ الأولَى ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ وصفَ هَيئَتِهم في جُلوسِهم، وهيَ هَيئَةُ المُطمَئِنِّ المُستَريحِ المُتَنَعِّم، لا القاعِدِ على ولَجٍ، ولا المُنتَظِرِ في ضيقٍ، بَلِ الجالِسِ استِقرارًا وارتياحًا، وهَذا مِن شَأنِ أهلِ الطُّمَأنينَةِ والسَّعَةِ.

وَأمّا الحالُ الثّانيَةُ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾؛ فإنَّها جاءَت؛ لِتَدُلَّ على طَبيعَةِ العَلاقَةِ بَينَ الجالِسينَ، وتُكمِّلَ مَشهَدَ الأُنسِ والمَسَرَّةِ، إذِ التَّقابُلُ في الجُلوسِ أدعَى إلَى حُسنِ المُؤانَسَةِ والتَّواصُلِ، وأبعَدُ عَن نَفرَةِ القُلوبِ أوِ انصِرافِ الأنظارِ. فلَيسوا جُلوسًا على هَيئَةِ التَّنافُرِ أوِ التَّباعُدِ، ولا مُتَساندينَ على جانِبَيِ السُّرُرِ في حالِ انصِرافٍ، بَل وُجوهُهُم إلَى بَعضِهِم، يُقبِلُ بَعضُهُم على بَعضٍ بالحَديثِ والبِشرِ، على سَجيَّةِ الإخوانِ المُتَحابّينَ، لا المُتَحاشينَ ولا المُتَنافِرينَ.

وَهَذا مِن كَمالِ النَّعيمِ؛ فإنَّ النَّفسَ لا تَأنَسُ بالمَكانِ فحَسبُ، ولا بالمَأكَلِ والمَشرَبِ وحدَهُ، ولَكِن تَأنَسُ بالصُّحبَةِ الطَّيِّبَةِ، والمَجلِسِ المُؤنِسِ، والمَظهَرِ الجَميلِ. وقَدِ اجتَمَعَت هَذِهِ المَعاني في هَذا التَّركيبِ الوَجيزِ العَجيبِ، الَّذي جَمَعَ بَينَ راحَةِ الجَسَدِ في الاتِّكاءِ، وراحَةِ النَّفسِ في التَّقابُلِ.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين الواقِعَة والطّور:

التَّناسق البيانيّ من سمات الاختيار للتَّركيب والمفردة في آيات القرآن

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾، وقال في الطّور: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطّور: 20]، والفرق أنَّ آيةَ الواقِعَة وردَت في سياقٍ مطوَّلٍ في بيان أهوالِ يومِ القيامةِ، فكانتِ الآيةُ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ تابعةً في النَّسقِ البيانيِّ لتفصيلِ أحوالِ (السّابقينَ)، الَّذين خُصّوا بالدَّرجةِ الأعلى من الكرامةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

ولمّا كان المقامُ مقامَ علوٍّ وسموٍّ، كان التَّعبيرُ بـ ﴿سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أنسبَ، إذِ (الموضونةُ) تدلُّ على الإتقانِ في الصَّنعةِ، والحياكةِ المحكمةِ في الباطنِ والظّاهرِ، وثنَّى ذلك بقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾، وهو وصفٌ يشيعُ في نفسِ السّامعِ الإيناسَ والمحبَّةَ، ويُبعدُ عن كلِّ نفورٍ أو جفاءٍ، فدلَّ على سكونِ النَّفسِ وكمالِ صفاءِ المجلسِ.

وأمّا آيةُ الطّور، فإنَّها جاءت في سياقٍ مُختصرٍ، يُرادُ به تقريرُ النَّتيجةِ لا تفصيلُها: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾، فكان التَّركيزُ هنا على تنظيمِ السُّررِ، لا على بنيتِها وصنعتِها، وهذا مناسبٌ لمقامِ الجمعِ الكثيرِ الَّذي وردَ في الآيةِ قبلَها: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الطور: 17]، ثمّ قوله: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: 18]. فجاءَ الوصفُ بـ(المصفوفةِ) ليدلَّ على حسنِ النِّظامِ، وترتيبِ الجلوسِ، إشارةً إلى أنّ كمالَ النَّعيمِ ليس في ذاتِ المتاعِ فقط، بل في كمالِ نظامِه وتناغمِه. ولم يُذكَر في آيةِ الطّورِ وصفُ التَّقابُلِ؛ لأنَّ المقامَ لا يحتملُ هذا التَّفصيلَ، ولأنَّ السّياقَ أرادَ الانتقالَ إلى ذكرِ الحورِ العينِ: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان: 54]، فجعلَ هيئةَ السُّررِ تمهيدًا لما بعدَها من النِّعَمِ، بخلافِ الواقِعَة، فإنَّها فصلٌ قائمٌ بنفسِه، يُرادُ به استيفاءُ أوصافِ حالِ المقرَّبين.

ففي الجمعِ بين الموضعين تتجلَّى فُنونُ البلاغةِ القرآنيَّةِ: الموضونةُ لمقامِ العُلوِّ، والمصفوفةُ لمقامِ النِّظامِ، والتَّقابُلُ لمقامِ الأُنسِ، والتَّزويجُ بالحورِ لمقامِ السُّرورِ. فكلُّ موضعٍ اختيرَ له ما يلائمُهُ من العبارةِ والدِّلالةِ، في تناغمٍ مع الغرضِ البيانيِّ، لا اختلالَ فيه ولا زيادة.

علَّة فصل جملة ﴿يَطُوفُ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلَت جُملَةُ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ عمّا قبلَها، مع كونِها من مُتمّماتِ نَعيمِ السّابقينَ، بأنّها جاءَت مَفصولةً استئنافًا؛ لتُفيدَ استقلالَ هذا اللَّونِ من النّعيمِ في نَظمِ التّعدادِ، لا لتُعطَى حُكمَ الحالِ المتعلّقِ باتّكائِهم أو تقابُلِهم، فإنّ الطّوافَ بالخدمةِ جارٍ في جميعِ الأحوالِ، سواءٌ كانوا متّكئين أم غيرَ ذلك، فأُتيَ به مُنفصلًا جُملةً مستأنفةً، تُفيدُ تجدُّدًا واستمرارًا، وتُبرزُ هذه النّعمةَ في صورةٍ مستقلّةٍ تُلفِتُ السّامعَ، وتُهيِّئُهُ لما سَيعقُبُها من بيانِ أنواعِ الأواني والمشروباتِ.

ونكتةُ الفَصلِ الانتقالُ من وصفِ حالِهم في جُلوسِهم على السُّرُر مُتَّكِئين مُتَقابِلين، إلى وصفِ نِعمةٍ مُستقِلّةٍ من النَّعيم، تُضافُ إلى ما سَبَق، ولكنَّها ليست من مُتمِّماتِ ما قبلَها حتّى تُعطَف، بل هي نِعمةٌ جديدةٌ قائمةٌ بذاتِها، فأُفرِدَت بجُملةٍ مُستأنَفة.

الاستئناف مُشعرٌ بنعمةٍ جديدةٍ يحسُن الالتفات إلى مكانتها

فائدة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَطُوفُ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَطُوفُ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ يَحملُ دِقَّةً بَيانيَّةً وبَلاغيَّةً فائقَة، فإنَّ استِعمالَ المُضارِعِ في مَقامِ الإخبارِ عن نَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ يُفيدُ تَجَدُّدَ الفعلِ واستِمرارَهُ[1]، مع تصويرِه، فهي إشارَةٌ إلى أنَّهُ يَقَعُ في كُلِّ آنٍ، ويَتَكرَّرُ في كُلِّ حينٍ، ولا يَكونُ مَحدودًا بزَمانٍ مُعيَّن.

تصويرُ حالِ طوافِ الولدان بتجدُّدٍ مستمرّ يُضفي روعةَ النّعيم المقيم

كما أنّ فِعلَ ﴿يَطُوفُ﴾ يُصَوِّرُ المَشهَدَ في حالِه الحَيَّةِ المُستَمِرَّة، كَأنَّكَ تَشهَدُ أولئِكَ الولدانَ وهُم يَتَنقَّلونَ في خِدمَةِ المُقَرَّبينَ، يَأتونَ بالأكوابِ والأباريقِ والكُؤوسِ، فلا فُتورَ في نَعيمِهم، ولا انقِطاعَ لِخِدمَتِهم، بَل هيَ دائِمَةٌ مُتَّصِلَةٌ، يُرادُ لَها أن تُصَوَّرَ في ذِهنِ السّامِعِ على هذا الوَجهِ مِنَ الحَيَويَّةِ والدَّوَران. كَأنَّ الآيةَ تُقَرِّبُ غائِبَ الآخِرَةِ لِمُتلَقّي القُرآنِ، وتَجعَلُهُ حاضِرًا في ذِهنِه.

فَهذا الفِعلُ الواحِدُ ﴿يَطُوفُ﴾ بصيغَتِهِ المُضارِعَةِ قَد جَمَعَ بَينَ دَلالَةِ الحالِ والاستِقبالِ[2]. وإشعارِ التَّجدُّدِ والاستِمرارِ، وإفادَةِ التَّنويعِ والتَّكرارِ، وهيَ مَعانٍ بَلاغيَّةٌ جَمَّةٌ تُضفي على اللَّفظِ الثَّوبَ البَيانيَّ الَّذي يَليقُ بالقُرآنِ العَظيم.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يَطُوفُ﴾:

خدمة الوِلْدان للمقرّبين مستمرّةٌ لازمةٌ منتظمةٌ

جاء اختيارُ لفظِ ﴿يَطُوفُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دونَ غيرِه من الأفعالِ الدّالّةِ على الحركةِ والخدمةِ

(1) الزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.
(2) المُبرّد، المُقتضب: 2/ 2.

كـ(يدور) أو (يمشي) أو (يتردّد)، هو من دقائقِ النَّظمِ القرآنيّ، لما في مادَّةِ الطَّوافِ من دلالةٍ على الحركةِ الدّائريَّةِ المستمرّةِ ذاتِ النِّظامِ، لا سيَّما إذا كانت مقترنةً بخدمةٍ متكرّرةٍ ذاتِ طابعٍ تشريفيّ، فهو حركةٌ منتظمةٌ لا عشوائيَّةَ فيها، تتضمّن الملازمةَ والاستمرارَ في الأداء[1]، وذلك أليقُ بحالِ الولدانِ الَّذين جُعلوا لخدمةِ المقرّبين، فهي خدمةٌ لا يشوبُها كسلٌ، ولا ينقطعُ فيها سعي.

ثمّ إنّ ﴿يَطُوفُ﴾ أنسبُ الألفاظِ في هذا الموضعِ لتصويرِ هيئةِ الولدانِ وهم يأتون ويذهبون بين المقرّبين بأكوابٍ وأباريقَ وكؤوسٍ من معينٍ، في مشهدٍ دائريٍّ تحفُّ بهِ الرّاحةُ والجمالُ والنِّظامُ، لا الضَّجيجُ والعناءُ.

وفي اختيارِ هذا اللَّفظِ إيحاءٌ بكرامةِ المقرّبين، إذ لم يُذكر أنّهم يطلبون ما يُسقَون، بل يُطافُ بهِ عليهم، فلا يحتاجون إلى حركةٍ ولا مناولةٍ، بل تأتيهم الأكوابُ والأباريقُ طوعًا، على يدِ خَدَمٍ مخلّدين، وذلك من تمامِ نعيمِهم، وكمالِ إكرامِهم.

فكان لفظُ ﴿يَطُوفُ﴾ أبلغَ في الدَّلالةِ على الخدمةِ المهذّبةِ المنتظمةِ، وأوفقَ بسياقِ النَّعيمِ والرَّفاهِ، وأدلَّ على السَّعةِ والحركةِ المستمرّةِ الَّتي لا تنقطع، وهو ما لا تؤدّيهِ سائرُ الألفاظِ القريبةِ منه في المعنى.

نكتة التّقييد بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

التّقييدُ بقيدِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دونَ أن يُقالَ: (يطوف حولهم) أو (بينهم) يحملُ نكتةً بلاغيّةً دقيقةً، تُظهر علوّ درجةِ المقرّبينَ وتمامَ الإكرامِ لهم؛ ففي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إيحاءٌ بالاستعلاءِ المجازيّ، الَّذي يُشعر أنّ الطَّوافَ هو من أجلِهم، لا لمجرّدِ الدَّورانِ في المكان، فليست الغايةُ وصفَ الحركةِ

المقرّبون قطب النَّعيم من حيث الإحاطة بالخدمة والقرب في التّلبية

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.

وحدَها، بل الإبانةُ عن مركزيَّةِ المقرّبينَ في هذا المشهدِ النَّعيميّ، فالولدان لا يطوفونَ في فضاءِ الجنّةِ، بل يطوفونَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي في خدمتهم، وحولَ ذواتهم، في ملازمةٍ دائمةٍ تُحقّق لهم الرّاحةَ التّامّة. مصاحبين لهم[1].

مع تضمُّنِ القيد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ معنى الإشرافِ والرِّعاية، في التّمكُّن من خدمتهم؛ إذ هي ظرفٌ يدلُّ على اختصاصِ الطَّوافِ بالمقرّبينَ أنفسِهم، لا بموضعِ جلوسِهم فحسب، فالمقرّبون على سررهم هم مركزُ الطَّوافِ وقطبُه، وكلُّ حركةٍ دائرةٌ عليهم، لا تخرج عنهم، فيكون ذلك أبلغَ في تصويرِ النَّعيمِ المعدّ لهم، والكرامةِ الَّتي أُفيضت عليهم.

ولو قيل: (يطوف حولهم) لكان ذلك أضعفَ في الدَّلالةِ على المركزيَّةِ والاختصاصِ، ولأوهمَ نوعَ تباعدٍ بين الطّائفِ والمطافِ عليه، وهو ما لا يليقُ بهذا السّياقِ الَّذي يُرادُ فيه تصويرُ القربِ والخدمةِ اللَّصيقةِ الممتدّة.

غرض تقديم قيد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المسند إليه:

المقرّبون هم مقصد الخدمة وموضع الاختصاص

لتقديمِ القيدِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المسندِ إليهِ في قولهِ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دلالةٌ بيانيَّةٌ دقيقةٌ يُقصدُ بها تخصيصُ الخدمةِ بهم، وتوجيهُ الاهتمامِ إلى محلِّ النِّعمةِ قبلَ الإخبارِ عن الفاعلِ[2]، مع إفادةِ الحصرِ والاختصاص، فتُبيِّن الآيةُ أنَّه لا يطوفُ أحدٌ في الجنّةِ بهذه الهيئةِ إلّا عليهم، أي: على هؤلاءِ المقرَّبينَ وحدهم، دونَ غيرهم من أهلِ النّعيم، فدلّ على مزيدِ شرفِهم، وتمييزِ منزلتِهم، وأنَّهم محلُّ هذه الخدمةِ الخاصّةِ المكرّرة.

كما أنَّ تقديمَ الظَّرفِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يوجّهُ نظرَ السّامعِ من أوّلِ الأمرِ إلى هؤلاءِ المقرّبينَ، ويُقرّرُ أنّهم موضعُ الإكرامِ والمشاهدةِ، قبلَ أن

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 143، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 379.
(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 129 - 130.

تُذكرَ أوصافُ الطّائفينَ وما يحملونه، فذلك من بابِ لفتِ الانتباهِ إلى المقصودِ من النِّعمةِ، لا إلى واسطتِها.

نكتة جمع وتنكير المسند إليه ﴿وِلْدَانٌ﴾:

إنَّ في جمعِ المسندِ إليه ﴿وِلْدَانٌ﴾ وتنكيرِه نكتةً بلاغيَّةً عظيمةً، تُفيدُ الإبهامَ من جهة، والتَّكثيرَ[1] من جهةٍ أخرى، ليُصوَّرَ المشهدُ بأعظمِ ما يكونُ من أبَّهَةِ الخدمةِ ودوامِها، فأمّا التَّنكيرُ فلإفادةِ التَّفخيمِ والتَّهويلِ، لا سيَّما في مقامِ النَّعيمِ، إذ المقصودُ ليس تعريفَ طائفةٍ معيّنةٍ بأعيانهم، بل بيانُ نوعِ الخدمِ الَّذين يطوفونَ على المقربينَ، فهم نوعٌ مخصوصٌ من الولدانِ، لم يُعهد نظيرُهم في الدُّنيا، فناسبَ الإبهامُ هنا تعظيمَ الشَّأنِ وتغريبَ الصّورةِ.

الجمع بيانٌ للكثرة والتّنكير للنّوع والإبهام فيه تفخيم الخدمة وتكثير النّعيم

وأمّا الجمعُ فهو للدَّلالةِ على الكثرةِ، إذ الطَّوافُ بالخدمةِ على أولئك المقرَّبينَ لا يكفيه واحدٌ ولا اثنان، بل هو طوافٌ دائمٌ متَّصلٌ، لا ينقطعُ ولا يتراخى، فلا بدَّ له من جمعٍ غفيرٍ من الولدانِ، يتعاقبونَ في خدمةِ أولئك النُّزلاءِ الكرامِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿وِلْدَانٌ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿وِلْدَانٌ﴾ دونَ: (غِلمانٌ) أو (صِبيانٌ) ونحوِهما، وذلك لنكتةٍ بلاغيّةٍ تَتّصلُ بتصويرِ هيئةِ الخِدمةِ في الجَنّةِ، ومقامِ السُّرورِ والنَّعيمِ الّذي يُرادُ إبرازهُ في سياقِ الآيةِ.

الأثر النّفسيّ للمتلقّي في مرعيّ النّظم البليغ والانتقاء الفريد

فلفظُ ﴿وِلْدَانٌ﴾ هو جمعُ (وَلَدٍ)، ويُطلقُ غالبًا على الصِّغارِ ممّن لم يبلغوا، في حينِ أنّ (غِلمانًا) قد يُستعملُ فيمن قارَبَ البلوغَ أو تَجاوَزَه، ومع أنّ كلا اللَّفظينِ مشتركٌ في معنى الخِدمةِ، فإنّ التَّعبيرَ بـ﴿وِلْدَانٌ﴾ يوحي بخِفّةِ الظِّلِّ، وسُرعةِ الحَركةِ، وبهاءِ المنظرِ، فناسبَ سياقَ النَّعيمِ التّامّ، والسُّرورِ الكاملِ، الّذي لا تشوبهُ كُلفةٌ ولا مشقّة.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

ثمّ إنّ ﴿وِلْدَانٌ﴾ أقربُ إلى إثارةِ المعنى التّصويريّ؛ لأنّ صورةَ الولدانِ - وهم يتنقّلونَ في الخِدمةِ بأكوابٍ وأباريقَ - أبهى وأكملُ في تَمثيلِ حالِ الأنسِ والمُتعةِ في الجَنّةِ، حيثُ يُقدَّمُ الشَّرابُ من غيرِ رهبةٍ ولا وقارٍ يوجِبُ التّكلّفَ أو الحَرَجَ.

فائدةُ الوصف بلفظ ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾:

دفع توهُّم ذهاب العمر الصّغير، بالخلود الدّائم

وُصِف الولدانُ بمخلّدين في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ للدّلالة على ديمومةِ الطَّواف عليهم ومناولتهم بحيث لا ينقطعون عن ذلك، وقد فُسِّر ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ بأنَّهم مخلّدون في صفة الولدان، أي: بالشَّباب والغضاضة، أي: ليسوا كولدان الدُّنيا يصيرون قريبًا فتيانًا فكهولًا فشيوخًا[1].

وَفي نَعتِ ﴿وِلْدَانٌ﴾ بالوَصفِ ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دلالَةٌ بَلاغيَّةٌ مُحكَمَةٌ توائِمُ سياقَ النَّعيمِ الَّذي يَجِدُهُ المُقَرَّبونَ في الجَنَّةِ، إذِ اقتَضَى مَقامُ التَّنعيمِ الدّائِمِ أن يُقرَنَ بخِدمَتِهِم مَن يَكونُ دَوامُهُ في الخِدمَةِ مَضمونًا، وهوَ ما يُفيدُهُ الوَصفُ بـ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾، فهم على سِنٍّ واحدة لا يتغيَّرونَ ولا يموتون. ومن خُلِّد وخُلِق للبقاء: لم يتغيَّر، فإنَّ الوَصفَ بالتَّخليدِ هُنا لا يُرادُ بِهِ خُلودُ الذّاتِ وفَناءُ الزَّمَنِ فحَسبُ، بَل هوَ إشارَةٌ إلَى ثَباتِ الصِّفَةِ واستِقرارِ المَنظَرِ، وقَد قيلَ: هُم يُخَلَّدونَ في الشَّبابِ، فلا يَبلونَ ولا يَتَغَيَّرونَ، ويَدومونَ في حالِ الحُسنِ والنَّضارَةِ، كَأَنَّهُم نُسَخٌ مِمّا تَتَمَنّاهُ النُّفوسُ في الخادِمِ في غايَةِ الجَمالِ واللَّطافَةِ والخِفَّةِ، ففيه دفع توهُّم أن يزول الوصفُ بالصِّفة.

فائدة التَّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول:

الجمعُ بين دلالة الخلودِ الزّمانيّ والتَّقريط بالخَلَدة تزيُّنًا

آثر النّظم الكريم التَّعبير بصيغة المبنيِّ للمفعول دون الفاعل فقال: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دون (خالدون)، أي: على سِنٍّ واحِدَةٍ لا يَتَغَيَّرونَ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 292.

ولا يَموتونَ. ومَن خُلِّدَ وخُلِقَ لِلبَقاءِ: لَم يَتَغَيَّر. ويُقالُ: مَسَوَّرونَ ويُقالُ: مُقَرَّطونَ[1]، والخَلَدة: القُرْط.

وَلِذا كانَ التَّعبيرُ بـ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أدَقَّ وأبلَغَ في الدّلالَةِ مِن أن يُقالَ: (خالِدونَ)، فإنَّ (خالِدينَ) تُشيرُ إلَى البَقاءِ في المَقام، أمّا ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ فهي تجمعُ دلالةَ الخلودِ السَّرمديّ الَّذي يكون من اللّه تعالى؛ فليس لأحدٍ أن يُخلِّد الخلقَ إلّا اللّه ﷻ، وهي كذلك أوفر دلالةً على معنى أنّهم مقرّطون، ولا مانع من إرادةِ الدّلالتين، دلالة الخلود الزّمانيِّ، ودلالة الزّينة، فهيَ تَقترِنُ في أذهانِ العَرَبِ بثَباتِ الحالِ واستِمرارِ الشَّبابِ وعَدَمِ التَّغَيُّرِ، فضلًا عمّا هم عليه من الزّينة والجمال، وذَلِكَ أجلَبُ لِلسُّرورِ، وأوفَقُ بمَقامِ الخِدمَةِ الجنّانيَّة.

نوع الباء ودلالتها:

جاءَ استعمال حَرفِ الباءِ في قَولِه: ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ ليُفيدَ المُصاحَبَةَ، وهوَ استِعمالٌ مَجازيٌّ مَعروفٌ في اللُّغَةِ وفي نَظائِرِ القُرآن. وفي هذا المَقام، تُفيدُ الباءُ أنَّ الولدانَ الَّذينَ يَطوفونَ على المُقَرَّبينَ، مُصطَحِبونَ مَعَهُم هذِهِ الأواني الثَّلاثَةَ: الأكوابَ والأباريقَ والكَأسَ، وهوَ تَصويرٌ لِكَمالِ الجاهِ والخِدمَةِ، فإنَّ الخادِمَ إذا جاءَ بالطَّعامِ والشَّرابِ مَعَهُ دونَ طَلَبٍ كانَ ذلِكَ أظهَرَ في الإكرام.

مشهد الإكرام المترف في خدمة المقرّبين ممّن صَحِب أدوات الخدمة

فَتَكونُ الباءُ متعلِّقةً بفعلِ ﴿يَطُوفُ﴾، على مَعنَى: يَطوفونَ عَلَيهِم مَعَهُم أكوابٌ، وفي ذلِكَ مَعنى الدَّوامِ والاستِعدادِ في الخِدمَةِ، كَأنَّ الأوانيَ لا تُفارِقُهُم، وذلِكَ أبلَغُ في نَعيمِ المُقَرَّبينَ؛ فهيَ باءُ المُصاحَبَة وهي كقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود: 48][2]، وفي تَأخيرِ ذِكرِها بَعدَ الفِعلِ والفاعِلِ، وإظهارِها في الجارِّ والمَجرورِ، تَوسيعٌ في التَّصويرِ، وتَفصيلٌ لِما يُرادُ تَعليقُهُ في ذِهنِ المُتَلَقّي.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 385.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 103، وابن يعيش، شرح ابن يعيش: 2/ 22.

دلالة جمع ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾:

الإيماءُ إلى كثرة أصناف المشروبات وأنواع الأسقية

إنَّ تَعديدَ الآنيَةِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ وجَمعَ الأكوابِ والأباريقِ دونَ الاكتِفاءِ بذِكرِ نَوعٍ واحِدٍ، يُنَزِّلُ مَنزِلَةَ التَّنويعِ والتَّعديدِ لِلتَّوسيعِ في تَصويرِ النَّعيمِ، والإشارَةِ إلَى تَعَدُّدِ أحوالِ الشُّربِ وخِدمَتِهِ في الجَنَّةِ، وما يُهَيَّأُ لِلسّابِقينَ مِن أنواعِ السُّرورِ والرّاحَةِ.

فالأكوابُ: هيَ آنيَةٌ لا عُرَى لَها، وغالِبًا ما تُستَعمَلُ في الشَّرابِ السَّريعِ السّائِغِ، والأباريقُ: آنيَةٌ لَها عُرًى وصَباباتٌ، تُستَعمَلُ لِصَبِّ الشَّرابِ، وفي ذِكرِهِما جَميعًا إفادَةُ كَمالِ الخِدمَةِ والنِّظامِ، فإنَّهُم يُؤتَونَ بالآنيَةِ الجاهِزَةِ لِلشُّربِ، وبالأدَواتِ المُهَيَّأةِ لِتَجديدِ الشَّرابِ، فلا يَنقَطِعُ ولا يَنفَدُ.

وَفي جَمعِهِما - دونَ الإفرادِ - إشعارٌ بكَثرَةِ التَّناوُلِ، وتَعَدُّدِ الأشرِبَةِ، وسَعَةِ الرِّزقِ، وذلك مِمّا يُضافُ إلَى مَعنَى التَّكريمِ والمُتعَةِ.

غرض تقديم الأكواب على الأباريق:

الإكرام حاضرٌ مهيَّأٌ مقرَّبٌ بين يدي المقرّبين

قُدِّمَ ذكرُ الأكوابِ على الأباريقِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ لِيُناسِبَ مَقامَ التَّلَذُّذِ والتَّنعيمِ، ويُفيدَ جَمالَ التَّصويرِ في نَظمِ السّورَةِ.

فَإنَّ الأكوابَ هيَ الآنيَةُ الجاهِزَةُ لِلشُّربِ، يُسقَى فيها الشَّرابُ دونَ احتياجٍ لِصَبٍّ أو تَجهيزٍ، وفي تَقديمِها إشارَةٌ إلَى أنَّ نَعيمَ السّابِقينَ في الجَنَّةِ مُهَيَّأٌ لَهُم تَهيئَةً تامَّةً، فهُم يُعطَونَ الشَّرابَ في كُؤوسٍ حاضِرَةٍ، لا تَكَلُّفَ فيها، ولا انتِظارَ لِصَبٍّ أو إعدادٍ.

ثُمَّ جاءَ ذِكرُ الأباريقِ تاليًا؛ ليَفيدَ ليُفيدَ أنَّهُم لا يُقصَرونَ على المَشروبِ الجاهِزِ، بَل عِندَهُم ما يَكفيهِم لِلتَّجديدِ والصَّبِّ، فيَكونُ ذَلِكَ أبلَغَ في بَيانِ غِنى النَّعيمِ ودَوامِهِ.

كما أنَّ في التَّقديم إيماءً إلى أنَّ أوَّلَ ما يَلقاهُ أهلُ الجَنَّةِ مِنَ الضّيافَةِ: أكوابٌ مَملوءَةٌ، فإذا نَفِدَ ما فيها، أُتوا بالأباريقِ ليَتَجَدَّدَ لَهُمُ الشَّرابُ، فيَظَلَّ النَّعيمُ دائِمًا، والشَّرابُ مَوفورًا، فلا يَفتُرُ سُرورُهُم، ولا تَنفَدُ مَسَرّاتُهُم.

مراعاةُ أحوال النُّزول في نظم القرآن مرعيَّةٌ لما فيها من ترغيبِ المنذَرين

علَّة إفرادِ ﴿وَكَأْسٍ﴾:

الكأس: إناءٌ للخمر كالكوب إلّا أنَّه مستطيلٌ ضيِّق المَشرب[1]، وأُفرد في قولِه تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، مع أنّ المذكوراتِ قبلَها جُمِعت: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾؛ وذلك لإرادةِ المفردِ الجنس، لا الواحد المعهود، "فالـ(كَأسُ) جِنسٌ يَصدُقُ بالواحِدِ والمُتَعَدِّدِ، فلَيسَ إفرادُهُ هُنا لِلوَحدَةِ، فإنَّ المَرادَ كُؤوسٌ كَثيرَةٌ، كَما اقتَضاهُ جَمعُ أكوابٍ وأباريقَ، فإذا كانَت آنيَةُ حَملِ الخَمرِ كَثيرَةً، كانَت كُؤوسُ الشّاربينَ أكثَرَ. وإنَّما أوثِرَت صيغَةُ المُفرَدِ؛ لِأنَّ في لَفظِ كُؤوسٍ ثِقَلًا بوُجودِ هَمزةٍ مَضمومَةٍ في وسَطِهِ، مَعَ ثِقلِ صيغَةِ الجَمعِ"[2].

وقد أغنى عن جمعِ الكأس قوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ فهو يدلُّ على الاستمرارِ، وإفراد الكأس يقتضي تفخيمًا من جهةٍ أخرى، وهي تُستعمل في شرب الخمر، وقد كان لشربِ الخمرِ شأنٌ عند العربِ، فكانوا يشربون الخمرَ بكأسٍ واحدةٍ وتبقى معهم يزيدونها كلّما نقصت، فالإفرادُ يُراد به دوام الشُّرب الدّال على المتعة الطَّويلة.

التّنويه بكأسٍ مرغوبةٍ لدى الشّاربين مطلوبةٍ عند السّامعين

غرض تنكير لفظ (كأس):

جاءت لفظُ (كأس) نكرةً لَم تُعرَّف لا بالإضافَةِ، ولا باللّام، ولَم تُقَيَّد بصِفَةٍ مُخَصِّصَةٍ سِوَى بَيانِ نَوعِها: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، وتَنكيرها يُرادُ بِهِ التَّعظيمُ، أي: كَأسٌ عَظيمَةُ الشَّأنِ، شَريفَةُ القَدرِ، جَزيلَةُ النِّعمَةِ؛ لِما تَحمِلُهُ مِن لَذَّةٍ وكَرامَةٍ، فلَيسَ المَقصودُ كَأسًا بعَينِها، بَل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

جِنسَ الكُؤوسِ الَّتي هيَ على أكمَلِ ما يَكونُ مِنَ اللَّذَّةِ والطُّهرِ.

وَمِنهُ يُعلَمُ أنَّ هذا التَّنكيرَ أوقَعُ في النَّفسِ وأبلَغُ في تَحريكِ الرَّغبَةِ؛ لِما فيهِ مِن إطلاقٍ لِلتَّخييلِ، وتَوسِعَةٍ في التَّقديرِ؛ فإنَّ النَّفسَ إذا سَمِعَت ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ مِن غَيرِ تَحديدٍ ولا تَقييدٍ، انبَعَثَ فيها شَوقُ التَّعَرُّفِ إلَى ما في هذِهِ الكَأسِ، وازدادَ يَقينُها بأنَّها فوقَ ما يُتَصَوَّرُ مِن لَذّاتٍ، لا سيَّما وقَد جاءَت مَسبوقَةً بجَمعِ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾، فعُطِفَت (كَأس) على ما قَبلَها، مُفرَدَةً مُنَكَّرَةً، كَأنَّها مِثالٌ نَوعيٌّ فريدٌ داخِلٌ في سياقِ التَّكريمِ.

فالمُرادُ: كَأسٌ مِن نَوعٍ كَريمٍ فائِقٍ، لا يَحتاجُ إلَى تَعريفٍ لِأنَّهُ أشهَرُ مِن أن يُعَرَّفَ، وأشرَفُ مِن أن يُحَدَّ بحَدٍّ، فتَأمَّل هذا المَوضِعَ كَيفَ جَمَعَ بَينَ التَّعظيمِ والتَّشويقِ والتَّخييلِ، وهوَ مِن لَطائِفِ نَظمِ التَّنزيلِ.

فائدة الجمعِ بين ذكرِ الأكواب والأباريق والكأس:

بيانُ التّكاملِ في ذكر أدوات التّلذُّذ في المشروبات والأسقية

جمع النّظم الكريم بين ذكرِ الأكوابِ والأباريقِ والكأسِ في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، وهذا من بديعِ التَّفنُّنِ في التَّصويرِ، ودقيقِ البيانِ في إظهارِ نعيمِ المقرَّبينَ، وتمامِ الخدمةِ المُهيَّأةِ لهم، في هيئةٍ لا يشوبُها نقصٌ، ولا يعتريها قصورٌ. فقد تعدَّدتِ الأواني المذكورةُ في الآيةِ، لا تَكرارًا ولا حشوًا، بل تفصيلًا لمنازلِ النِّعمةِ، وتنوُّعًا يُفصحُ عن كمالِ التَّرفِ ووفرةِ الخدمةِ، إذِ الاقتصارُ على واحدةٍ منها لا يُؤدّي إلّا معنًى جزئيًّا، أمّا الجمعُ بينها، فهو المعبِّرُ عن تمامِ المشهدِ، من أوَّلِ إعدادِ الشَّرابِ إلى لحظةِ التَّذوُّقِ.

فالأكوابُ هي الأقداحُ الَّتي لا عُرى لها، وتُستعملُ للشُّربِ المباشرِ، وغالبًا ما تُقدَّمُ مملوءةً، فدلَّت على اليُسرِ والسُّرعةِ في التَّناولِ، كأنَّها مُهيَّأةٌ للتَّقديمِ الفوريِّ. وأمّا الأباريقُ فهي الأواني ذاتُ العُرى الَّتي يُصَبُّ منها، فدلالتُها على السَّعةِ، وإمكانِ إعادةِ الملءِ والصَّبِّ،

وهي أنسبُ بيدِ الخَدَمِ في الطَّوافِ. ثمّ خُتمَتِ الجملةُ بالكأسِ، وهي في لسانِ العربِ لا تُسمَّى (كأسًا) إلّا إذا كانت مملوءةً بشرابٍ، فهي إنَّما تُذكَرُ عند التَّلذُّذِ بالشُّربِ، لا عند الإعدادِ والتَّقديمِ. فجاءَ ترتيبُ الألفاظِ على نحوٍ يُراعي تسلسلَ المراحلِ: الإبريقُ للإعدادِ، والكوبُ للتَّقديمِ، والكأسُ للتَّمتُّعِ بالشُّربِ.

فلو اقتصرَ التَّعبيرُ على أحدِ هذه الأواني، لفاتَ وجهٌ من وجوهِ النِّعمةِ، ولَنَقَصَ من كمالِ المشهدِ، إذِ المتنعِّمُ لا يُسرُّ بكثرةِ الشَّرابِ فقط، بل بحُسنِ التَّقديمِ، وجمالِ الهيئةِ، وسَعةِ الاختيارِ، وتفنُّنِ الأدواتِ. ثمّ إنَّ هذا التَّنويعَ يُشيرُ إلى وفرةِ الخَدَمِ، وإلى أنّ كلَّ مرحلةٍ من مراحلِ الإكرامِ قد أُعدَّ لها وعاؤُها الخاصُّ، وخادمُها المختصُّ، في مشهدٍ يُشيعُ في النَّفسِ إحساسًا بالفخامةِ والرِّفعةِ، وهو ما يناسبُ مقامَ السّابقينَ الَّذين قال فيهم قبلَ ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وقد رُتِّبَتِ الأواني الثَّلاثةُ على نسقٍ تصاعديٍّ: أباريقُ، ثمَّ أكوابٌ، ثمَّ كأسٌ، فجاءتِ الكأسُ مفردةً، تعظيمًا لها، وكان ختامُ التَّرتيبِ إيذانًا بكمالِ النِّعمةِ، وكأنَّ كلَّ ما قبلَها تمهيدٌ لها.

نوع ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

دفـــع أوهـــام الأفهام عن إرادةِ مشروبٍ بعينه وتعيين المقصود

﴿مِّن﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ بَيانيَّةٌ، وهيَ الدّاخِلَةُ على المُبَيَّنِ بَعدَ إجمالٍ أو ما يُشبِهُ الإجمالَ، وقَد أفادَت هُنا بَيانَ جِنسِ المَشروبِ الَّذي تَحتَويهِ تِلكَ الكَأسُ، فالكَأسُ – وإن كانَت تُطلَقُ أحيانًا على الإناءِ مَعَ الشَّرابِ – فإنَّ هذا التَّركيبَ القُرآنيَّ بَيَّنَ المُرادَ بما لا يَدَعُ مَجالًا لِلإجمالِ، ورَفَعَ الاحتِمالَ، بذِكرِ المَشروبِ نَفسِهِ.

فَلَم يُرَد أنَّها كَأسٌ على الإطلاقِ، ولا كَأسٌ مِن خَمرِ الدُّنيا، بَل مِن شَرابٍ مَخصوصٍ، نَقيٍّ، طاهِرٍ، صافٍ، وهوَ (المَعينُ)، وهوَ الجاري الظّاهِرُ الَّذي لا كَدَرَ فيهِ ولا شائِبَةَ.

فَدَلَّت ﴿مِّن﴾ البَيانيَّةُ على هَذا التَّقييدِ المَقصودِ، وبِهِ تَرتَقي صورَةُ النَّعيمِ إلَى حَدِّها الأعلَى، إذ لَيسَ مُجَرَّدُ الشَّرابِ هوَ مَحَلَّ النِّعمَةِ، بَل نَوعُهُ، وصَفاؤُهُ، واستِمرارُ جَرَيانِهِ.

فَبِهَذا التَّركيبِ أُفيدَت خُصوصيَّةُ هَذا الشَّرابِ، وتَمَيُّزُهُ عَن كُلِّ مَشروبٍ مَألوفٍ، ولَولا دُخولُ ﴿مِّن﴾ لاحتَمَلَ أن تَكونَ الكَأسُ مِمّا يُفهَمُ عُرفًا مِنَ الشَّرابِ، فجاءَت ﴿مِّن﴾ لتدفع أن يكون مِن خَمرِ الدُّنيا، ولا مِن ماءٍ مَألوفٍ، بَل مِن شَرابٍ مَخصوصٍ بالنَّعيمِ الأُخرَويِّ، ظاهِرِ الجَرَيانِ، خالِصِ الطَّبعِ، لا يُنكَرُ لَونُهُ، ولا يُخشَى ضَرَرُهُ.

براعة مفردة ﴿مَّعِينٍ﴾ وأثرها في بيان معنى الجريان:

المعين هو الجاري بصفاءٍ غير معهودٍ، الباقي بنقاءٍ غير مشهود

دلالَةُ لَفظِ ﴿مَّعِينٍ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ تَبنَي على ما في مادَّةِ الكَلِمَةِ مِن اشتِقاقٍ، فإنَّ المَعينَ هوَ الماءُ الظّاهِرُ الجَرَيانِ على وجهِ الأرضِ، يُقالُ: ماءٌ مَعينٌ إذا كانَ جاريًا يُمكِنُ لِلعَينِ أن تَراهُ، بِخِلافِ الماءِ الرّاكِدِ أوِ المُستَتِرِ في الأعماقِ. وهَذا المَعنَى مَأخوذٌ مِن أصلِ الفِعلِ (عانَ الماءُ)، إذا ظَهَرَ وسالَ، فـ المَعينُ ماءٌ بارِزٌ لِلعُيونِ، غَيرُ مَحجوبٍ ولا خَفيٍّ. وقَد ذَكَرَ أبو عُبَيدَةَ مَعنَى قَولِهِ: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي شَرابٌ مِن مَعينٍ، والمَعينُ هوَ الماءُ الطّاهِرُ الصّافي، الَّذي يَجمَعُ بَينَ حُلوَةِ المَذاقِ وصَفاءِ المَنظَرِ، فيُضفي على مَشهَدِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ صورَةً مِن النَّقاءِ التّامِّ والطُّهرِ الكامِلِ الَّذي لا يَشوبُهُ كَدَرٌ ولا عَكَرٌ[1].

واختيارُ هذا اللَّفظِ في هذا السّياقِ له نكتةٌ بيانيّةٌ جليلة، فإنّه يُفصحُ عن صفةِ الشَّرابِ المخصوصِ في الجنَّة، ويُشير إلى أنَّه ليسَ جامدًا ولا راكدًا، بل هو جارٍ ظاهرٌ في عذوبته ونقائه، وذلك أدخلُ في بهجةِ النَّفس، وأشدُّ وقعًا في وصفِ النَّعيم. فإنّ الشَّرابَ إذا

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 249.

جرى كانَ أطيبَ للذَّوق، وأشهى للنَّفس، وأدعى للرّاحةِ والارتواء.

فقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي خمرٍ جاريةٍ صافيةٍ صفاءَ الماء ليس يُتكلَّف عصرُها بل ينبع كما ينبع الماء[1]. فدلّت هذه المفردةُ على أنّ الكأسَ لا تحتوي على خمرٍ معهودٍ، بل على شرابٍ أخرويٍّ مخصوصٍ في صفائهِ وجريانهِ ودوامهِ، وليس من شأنه إسكارٌ أو صُداع، بل هو معينٌ في ذاته، معينٌ في أثره. فهو وصفٌ يلمح إلى استمرارِ النَّعيم، ودوام اللَّذّة، وتجدُّدِ المتعة، فالمَعينُ هو الجاري، والمُرادُ بهِ الخَمرُ الَّتي لِكَثرَتِها تَجري في المَجاري كَما يَجري الماءُ، ولَيسَت قَليلَةً عَزيزَةً كَما هيَ في الدُّنيا، قالَ تَعالَى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [مُحَمَّد: 15]، ولَيسَ المُرادُ بـ المَعينِ الماءَ؛ لأنَّ الكَأسَ لَيسَت مِن آنيَةِ الماءِ وإنَّما آنيَتُهُما الأقداحُ[2]، وقَدْ تَقَدَّمَ في سورَةِ الصّافّات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصافات: 45 - 47] وتِلْكَ صِفاتُ الخَمْرِ.

إثباتُ نعيم الآخرةِ المُحال في الدُّنيا يستصحب نفيَ العيوب المعهودة

بلاغة مناسبة النّفي ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ بعد الإثبات:

قَولُهُ تَعالَى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ من تَمام البَيانِ في وصفِ شَرابِ الجَنَّةِ، بَعدَ أن تَقَدَّمَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، فكانَ هَذا النَّفيُ لنفي ما يعتري النّاس من آفاتِ الشُّربِ المَعهودَةِ في الدُّنيا، فدَلَّ على صَفاءِ الشَّرابِ، وكَمالِ راحَةِ الشّارِبِ، وخُلوِّ اللَّذَّةِ من كُلِّ كَدَرٍ وأذًى. فوقع التّناسب بين الإثبات والنّفي؛ فلمّا "أثبَتَ نَفعَها وما يُشَوِّقُ إلَيها، نَفَى ما يُنَفِّرُ عَنها فقالَ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾؛ أي تَصَدُّعًا يوجِبُ المُجاوَزَةَ ﴿عَنْهَا﴾؛ أي بوَجَعٍ في الرَّأسِ ولا تَفَرُّقٍ لِـ مَلالَةٍ ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾؛ أي يَذهَبُ بعُقولِهِم بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ أي يَصرَعُ شَرابُهُم، مِن (نَزَفَتِ) البِئرُ - إذا نُزِحَ ماؤُها كُلُّهُ، و(نُزِفَ) فُلانٌ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 406.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

ذَهَبَ عَقلُهُ أو سَكِرَ"[1].

دلالة استعمال ﴿لَّا﴾ النّافية:

نـفـي الـحـال والاسـتـقـبـال أرسخ في النّفي وأمتن في تحقيق المراد

استعمل النّظم الكريم أداةَ النَّفي في قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾، فهي أداةُ النَّفي المشهورةُ، الَّتي تدلُّ على الاستغراقِ الزَّمانيِّ والدَّوامِ، وهي أقوى ما يُستعملُ لنفي الوقوعِ على وجهِ العمومِ، في الحالِ والاستقبالِ، فكأنَّه قيل: لا يصيبُهم صداعٌ أبدًا، ولا في وقتٍ من الأوقاتِ، ولا في أيِّ حالٍ من الأحوالِ. وهذا أبلغُ من أن يُقال: (ما يُصَدَّعون) أو (لن يُصَدَّعوا)؛ لأنَّ (لا) النّافيةَ للمضارعِ تفيدُ الثَّباتَ والدَّوامَ على نفي الفعلِ.

نكتة بناء فعل ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ للمفعول:

نفي الصُّداع من جميعِ الجهات أمـــدح لـخـمـر الـجـنّة وأشهى في تصوُّرِها

بُني فعلُ ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بالبناءِ للفاعلِ، وذلك للاهتمامِ بالأثرِ الواقعِ على المنعَّمينَ دون الالتفاتِ إلى السَّببِ أو الفاعلِ؛ فالغرضُ منصبٌّ على نفي الإصابةِ، لا على تعيينِ مَن كان يسبِّبها، أو ما يُؤدّي إليها[2]، ففي قوله: ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ نفيٌ عامٌّ شاملٌ، لا يُبقي احتمالًا لأن يكون التَّصدُّعُ واردًا من جهةٍ ما، سواءٌ أكان بسببِ الشَّرابِ نفسِه، أو من أثرٍ طارئٍ، أو من خارجٍ عنه، أو تفاعلٍ نفسيٍّ. فالبناءُ للمفعولِ يعمُّ كلَّ جهةٍ مفترضةٍ للإصابةِ بالصُّداعِ، وهو أبلغُ في النَّفي من البناءِ للفاعلِ؛ ففي هذا التَّعبيرِ من الإكرامِ الخفيِّ، والتَّلويحِ بالعنايةِ الإلهيَّةِ، ما لا تبلغه العبارةُ المباشرةُ، إذِ العبدُ إذا لم يُحتَج منه إلى دفعِ الضَّررِ، دلَّ ذلك على كمالِ التَّكفُّلِ بشأنِ راحتِه من لدن ربِّه.

براعةُ التَّعريض بأسلوبِ النّفي المقارن بين حالين:

لم يكن الغرضُ مقتصرًا في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 407.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 407.

يُنزِفُونَ﴾ على نفيِ الضَّررِ عن شرابِ أهلِ الجنَّةِ، بل تضمَّن تعريضًا بليغًا بخمرِ الدُّنيا، وما يصاحبُها من المضرّاتِ والآفاتِ الَّتي يُؤثِرُ النّاسُ معها اللَّذَّةَ، ويُقاسونَ في سبيلِها الأذى، مع غفلتِهم عن خمرٍ طاهرةٍ لا يُصدَّعون منها ولا يُنزفون.

مقارنةٌ مشهديّة بين خمر الجنَّة وخمر الدُّنيا تُصدِّع عقولَ البائسين وتُريح قلوبَ الطّاهرين

فالتَّعريضُ هنا يكونُ في مقابلةِ حالِ خمرِ الآخرةِ بحالِ خمرِ الدُّنيا، تعريضَ ذمٍّ وإزراءٍ بها، وإن لم تُذكر تصريحًا، وذلك من أبلغِ أساليبِ البيانِ؛ فإنّ نفيَ التَّصدُّعِ والإنزافِ إنَّما يكونُ لما يُعرَفُ من إثباتهما في الدُّنيا ووقوعِ مثلِ هذه الآفاتِ في خمرِ الدُّنيا، فالآيةُ تنفي أن يكونَ خمرُ الجنَّةِ كخمرِ الدُّنيا، الَّتي تورِثُ صُداعًا، وتُفسِدُ العقلَ، وتُضعِفُ الإدراكَ، بل هي خمرٌ لا مضرَّةَ فيها بوجهٍ من الوجوهِ.

وهذا التَّعريضُ - وإن جاءَ في صورةِ النَّفيِ - فهو في جوهرِه مُقابلةٌ خفيَّةٌ ذاتُ دلالةٍ عميقةٍ، تُقارنُ حالَ الطّاهرِ بالمدنَّسِ، وتُشيرُ إلى أنَّ ما يُعظِّمُه النّاسُ في الدُّنيا من شرابٍ، هو في ميزانِ النَّعيمِ الحقيرُ الذَّليلُ، وأنَّ ما يُعَدُّ نعيمًا دنيويًّا، لا يخلو من شوائبَ تنقضُ عليه بهجتَه، وتُنغِّصُ على صاحبِه لذَّتَه.

وما أبلغَ أن يأتيَ هذا التَّعريضُ في مقامِ الامتنانِ بنعيمِ الجنَّةِ، ليقعَ في النَّفسِ أثرُ التَّمييزِ بين النَّعيمِ الخالصِ والنَّعيمِ المشوبِ، وبين ما تُزيِّنُه الشَّهوةُ في الدُّنيا، وما تُحقِّقه الحقيقةُ في الآخرةِ، فهو تعريضٌ يوقظُ الحسَّ، ويوقظُ العقلَ، ويدعو إلى المفاضلةِ بين الحالَينِ، من غيرِ تصريحٍ، بل بإيجازٍ راقٍ بالغِ الدَّلالةِ.

خمرُ الجنّة مُصانةٌ عن النَّقائص من كلِّ جهةٍ بخلاف خمر الدُّنيا

براعة استعمال (عن) في السّببيّة:

دلَّ حرف (عن) في قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ على السَّببيّة، "وحقيقته: لا يصدر صداعُهم عنها، أو لا يُفرَّقون عنها"[1]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

وقد اتّفقَ جمهورُ أهلِ البيانِ على أنَّها في هذا الموضعِ للتَّعليلِ أو للسَّببيَّةِ، مع تضمُّنها معنى المجاوزةِ، ومعنى المُجاوزة الابتعادُ[1]، وهو استعمالٌ بليغٌ دقيقٌ، يُفصحُ عن سرٍّ لطيفٍ في نظم الآيةِ، فمعنى ﴿عَنْهَا﴾: "مجاوزين لها، أي: لا يقع لهم صداعٌ ناشئٌ عنها، أي: فهي منزَّهة عن ذلك بخلاف خمور الدُّنيا؛ فاستعملت (عن) في معنى السَّببيَّة"[2]. ولم يقل: (بها)؛ للدّلالةِ على أنَّ التَّصدُّعَ - إن وُجِدَ - فإنَّه يكون بسببٍ من جهتها، لا منها مباشرةً، وهذا أبلغُ في نفيِ التَّأثُّرِ بها؛ لأنّ (عن) تُفيدُ معنى الإبعادِ والمجاوزةِ، فكأنَّه قيل: لا يتصدَّعون بسببٍ ناشئٍ من جهتها، أو على إثرِ تناولِها، ولو من بعيدٍ. وفي ذلك احتياطٌ في التَّعبيرِ، يدلُّ على أنَّ التَّصدُّعَ منفيٌّ ليس فقط عن مباشرَةِ الكأسِ، بل أيضًا عن أيِّ مجاوزةٍ أو أثرٍ قد يُتوهَّمُ حصولُه منها، كأنَّ الشَّرابَ قد أحاطَت به عنايةُ اللّهِ، فلا يُفضي إلى ضررٍ أصلًا، لا من ذاتِه، ولا من جهةِ اقترابِه، ولا من أثَرٍ لاحقٍ له.

فـ(عن) توحي بمعنى الاحترازِ والتَّنزيهِ المطلقِ، لا النَّفيِ المجرَّدِ، فهي ليست نفيًا للتَّصدُّعِ عن فعلِ الشُّربِ فقط، بل نفيٌ لما قد يترتَّبُ على فعلِ الشُّربِ أو يُجاوِرُه، فجاءَ الأسلوبُ أبلغَ في الإحاطةِ، وأدقَّ في تنزيهِ شرابِ الجنَّةِ عن أدنى شائبةِ الأذى.

فائدةُ عطف ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾:

تقدير المتعلّقات المحذوفة وبيان تكامل معاني الامتنان

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ على قولِه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ من عطفِ التَّمييزِ والتَّكميلِ، لا من عطفِ المترادفِ، وذلك من بلاغةِ النَّظمِ القرآنيِّ في استيفاءِ جوانبِ المعنى، وتغطيةِ مراتبِ السَّلامةِ والنِّعمةِ في آنٍ واحدٍ، ومن مقتضيات العطف تقدير متعلّق لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ تقديره: (ولا ينزفون عنها)، دلّ عليه

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 46.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

متعلِّق ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، كما في سورة الصّافات: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ فلا يعتريهم نَزفٌ بسببها كما يحصل للشّاربين في الدُّنيا[1].

والتَّصدُّعُ والإنزافُ - وإن اشتركا في كونهما من آثارِ خمرِ الدُّنيا - يُمثِّل كلٌّ منهما وجهًا مستقلًّا من وجوهِ الضَّررِ: فالتَّصدُّعُ أثرٌ جسديٌّ محسوسٌ في الرَّأسِ، من صداعٍ أو ألمٍ بعد الشُّربِ، وأمّا الإنزافُ فهو أثرٌ عقليٌّ نفسيٌّ، يُعبَّرُ به عن ذهابِ العقلِ وفقدانِ التَّمييزِ بسببِ السُّكرِ.

ذهـابُ الكـرامةِ الإنـسـانـيّـة مع أوّل قطرات خمر الدُّنيا

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُنزِفُونَ﴾:

استعمل النّظم الكريم مفردة الإنزاف في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، والإنزافُ مأخوذٌ من مادَّةٍ تدلُّ على استفراغِ الشَّيءِ واستنزافِه حتَّى النَّفادِ، ومنه قولهم: (نَزَفَ الماءُ) إذا فنيَ، ونُزِفَ الرَّجلُ إذا ذهبَ عقلُه من الشُّرابِ، الشَّرابِ، حتَّى لم يبقَ له تمييزٌ[2]، ونزَفتُ البئر أنزِفُه نَزفًا: إذا نزحتَه كلَّه[3]؛ وهذا المعنى هو الَّذي انبنت عليه صورةُ خمرِ الدُّنيا، إذ هي لذَّةٌ يعقبُها ذهابُ العقلِ، وضياعُ التَّمييزِ، وسقوطُ الهيبةِ، بل قد تفضي إلى السُّقوطِ عن درجةِ الإنسانيَّةِ.

فاختيرتِ فاختيرتْ مفردةُ ﴿يُنزِفُونَ﴾ دون غيرها من صيغِ السُّكرِ، كـ(يسكرون) أو (يذهَلون)،؛ لما فيها من الدِّقَّةِ في التَّصويرِ، والبلاغةِ في الأداءِ، إذ دلَّت على أنَّ ما يُتناوَلُ من تلك الكأسِ الموصوفةِ ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، لا، يَذهبُ بعقولِهم ولا يَنقُصُ من تمييزِهم شيئًا، ولا يستنزفُ قواهم العقليَّةَ كما تفعلُ خمرُ الدُّنيا،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزف).
(3) الصّغانيّ، العباب الزّاخر: (نزف): 2/ 19.

بل هم يشربونها في أقصى درجاتِ اللَّذَّةِ وأعلى مراتبِ التَّعقُّلِ؛ ففيه إقامةٌ للكرامةِ الإنسانيّة، بغرضِ التّعريض بضدِّها لشاربي الخمر في الدُّنيا.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تكامل الدَّلالة بين نفي السُّكر ونفي الإنهاك

ورد في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قراءتان متواترتان، لكلٍّ منهما دلالةٌ بيانيَّةٌ دقيقةٌ تُثري المعنى وتزيدُه عمقًا، أمّا قراءة الجمهور: ﴿وَلَا يُنزَفُونَ﴾ بفتح الزّاي من أنزف الَّذي همزته للتَّعدية، وقرأ الكوفيّون بكسر الزّاي من أنزف المهموز القاصر إذا سَكر وذهب عقله[1]. فالقراءةُ بكسر الزّاي: ﴿يُنزِفُونَ﴾ مأخوذة من (أنزَفَهُ الشَّرابُ) إذا أسكرَه وذهب بعقلِه، والمعنى: لا يُصيبهم سُكرٌ ولا ذهابُ تمييزٍ، بل يشربون وهم بكاملِ عقلِهم ووعيهم، فاجتمعت لهم لذَّةُ الشَّرابِ وصفاءُ الإدراك. وهي قراءةٌ تناسبُ ما قبلها من قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، إذ نُفيَ عنهم الصداعُ الَّذي هو أثرٌ جسديٌّ، ثمَّ نُفيَ عنهم السُّكرُ الَّذي هو أثرٌ عقليٌّ، فكمل بذلك نفيُ جميعِ المكدِّراتِ عن شرابهم.

وأمّا القراءةُ بفتح الزّاي: ﴿وَلَا يُنزَفُونَ﴾ فهي من (نُزِفَ) بالبناء للمفعول، أي فُرّغ وأُنهِك، والمعنى: لا يُستنزفون ولا يُنهكون، لا من جهة الشَّرابِ ولا من جهة أثرِه، فلا يذهب عقلُهم، ولا تضعف قواهم، ولا ينفد نشاطهم، بل هم في لذّةٍ دائمةٍ لا تُفضي إلى تعبٍ ولا نقصان[2].

والبَلاغَةُ في اختلافِ القِراءَتَينِ تَظهَرُ في جَمعِهما بَينَ نَفيِ السُّكرِ ونَفيِ الإنهاكِ، وبَينَ سَلامَةِ الإدراكِ وسَلامَةِ القوَى، وبَينَ بَقاءِ العَقلِ وثَباتِ الجَسَدِ، فدَلَّ مَجموعُهُما على كَمالِ النِّعمَةِ مِن كُلِّ وجهٍ، وأنَّ خَمرَ الجَنَّةِ مُنَزَّهَةٌ عَن كُلِّ ما يَنقُصُ اللَّذَّةَ أو يُكَدِّرُ

(1) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 357.

(2) أبو زرعة، حجّة القراءات، ص: 694، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

صَفوَها، فهيَ طاهِرَةٌ في ذاتِها، وآثارُها طاهِرَةٌ كَذَلِكَ.

دلالة حذف المتعلّق بالفعل ﴿يُنزِفُونَ﴾:

الحمل على نفي عموم النّزف أو على تقدير محذوف يُقدّر من السّياق

إنّ حَذفَ المتعلِّقِ بالفعلِ ﴿يُنزِفُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ هو من دقائقِ الإيجازِ البليغِ الَّذي يُعهَدُ في أسلوبِ القرآن، وقد جرى على نهجٍ بلاغيٍّ رفيعٍ يُعرفُ عند أهلِ البيانِ بحذفِ ما يُفهَمُ من السّياقِ اتّكالًا على ظهورِ المعنى، طلبًا للإيجازِ، وتشويقًا للفهمِ، وتوسعةً للدّلالةِ.

جاءَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ دون أن يُذكَرَ المتعلَّقُ به (أي: منها، أو بسببها)، للإشارةِ إلى عمومِ انتفاءِ أثرِ الخمرِ المعروفِ في الدُّنيا، سواءٌ أكان صداعًا أو سُكرًا أو خَوَرًا أو أذًى في البدن أو العقل. فالحذفُ دلّ على العموم، وأكسبَ العبارةَ اتّساعًا في المعنى، فأفادَ أنَّهم لا يُصيبهم من ذلك الشَّرابِ شيءٌ من الأثرِ السَّلْبيِّ ألبتّة.

وتقدير حذف المتعلِّق يؤخذ من المعطوف عليه، فإنَّ تقديره: (ولا ينزفون عنها)، دلّ عليه المتعلِّق بالفعل يصدَّعون ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، كما في سورة الصّافات: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: 47]؛ فلا يعتريهم نَزفٌ بسببها كما يحصل للشّاربين في الدُّنيا[1]، وفي هذا الحذفِ أيضًا مراعاةٌ للفاصلة القرآنيَّة، واتّساقٌ في الجرسِ مع ما قبله، حيثُ اقتُصر على ذكرِ الفعلين في صورةٍ موجزةٍ خفيفةٍ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، فكان أوقعَ في النَّفسِ، وأقوى في الإيقاعِ، وأدعى لتأمُّلِ المعنى العظيمِ الَّذي حواه هذا النَّفي.

دلالة عطف ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ على الأكواب:

إكرام المقرّبين بالطّعام والشّراب بين تمام الخدمة وجمال التّصوير

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ وهو يُفيدُ التّوسيعَ في أصنافِ اللَّذَّةِ، وتنويعَ مظاهرِ الإكرامِ، وإتمامَ رسمِ صورةِ النّعيمِ الكاملِ المتنوِّعِ بين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 294.

الشّرابِ والطَّعام. "أي ويطوفون عليهم بفاكهة وذلك أدخل في الدَّعَة وألذّ من التَّناول بأيديهم، على أنَّهم إن اشتهَوا اقتطافها بالأيدي دنت لهم الأغصانُ فإنَّ المرء قد يشتهي تناول الثَّمرة من أغصانها"[1].

فالعطفُ هنا - مع اختلافِ المَتاعينِ - ليس لمجرَّدِ الجمعِ، بل للدّلالةِ على مظهرٍ آخرَ من مظاهرِ الرّاحةِ والدَّعةِ؛ إذ إنَّ كونَ الولدانِ المخلَّدينَ يَطوفونَ عليهم بالأكوابِ والأباريقِ، قد يُخيَّلُ معه أنَّ تناولَ الطَّعام يقعُ من السّابقينَ أنفسِهم. فجاء العطفُ بـ(فاكهةٍ) دالًّا على أنَّ الطَّوافَ يشملُ كذلك ما يُؤكَلُ، لا ما يُشرَبُ فقط، أي إنَّ الخدمةَ كاملةٌ في المشروبِ والمطعومِ، دون أن تمتدَّ يدُ المُنعَّم لطلبِ شيءٍ.

وهذا يُضفي على المشهدِ تمامَ الرَّفاهِ، وكمالَ الاستقرارِ، والتَّرفِ، فالمقرَّبونَ لا يتكلَّفونَ طلبًا، ولا يتحرّكونَ تناولًا، بل تُقرَّبُ إليهم أصنافُ اللَّذَّةِ كما تُقرَّبُ الكؤوسُ.

فائدة تنكير (فاكهة) وإفرادها:

شمول الجنس ودقّة الإكرام في إشباع اختيار المقرّبين

إفرادُ لفظِ (فاكهةٍ) في قولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ مع أنَّ المقامَ مقامُ تَعدادِ ألوانِ النّعيمِ، ليس مرادًا به الوحدةُ فقط، بل هو مفردٌ أُريد به الجنس، وهو من أساليبِ العربيّةِ المألوفةِ في مقامِ التَّفنُّنِ والتّنوّع، كقولهم: (أكلنا طعامًا شهيًّا)، أي من أنواعٍ متعدّدةٍ. فجاءت فاكهةٌ نكرةً مفردةً لتفيد التَّنوّعَ والانبساطَ في الأنواع، لا التّحديدَ أو الاقتصار؛ لأنّ التَّنكيرَ في هذا السّياقِ دالٌّ على الشّياعِ والإطلاقِ، فكلُّ فاكهةٍ مرغوبةٍ داخلةٌ في هذا المعنى.

أمّا التّنكيرُ فهوَ أبلغُ في إثارةِ التَّوقُّعِ والتَّشوُّفِ؛ لأنّ حذفَ المعرِّفِ يبعثُ في ذهنِ السّامعِ أو القارئِ تساؤلًا عن ماهيّةِ هذه الفاكهةِ، فيكونُ الجوابُ أنَّها فاكهةٌ ممّا يَتخيّرون، أي هي على ما يطلبونَه ويشتهونَه، لا على ما يُفرَضُ عليهم، فالتَّنكيرُ هنا مرآةُ التَّعظيمِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

والاختيارِ، لا التَّقليلِ أو التَّقويض.

والحاصلُ أنّ الإفرادَ والتّنكيرَ قد اجتمعا؛ ليُفيدا شمولَ الجنسِ[1]، وتنوّعَ الأنواعِ، وتعظيمَ الشَّأنِ[2]، وموافقةَ المرغوبِ، ودقّةَ الإكرامِ، وهي معانٍ لا تُؤدّيها الكثرةُ الظّاهرةُ كما يُؤدّيها هذا التّنكيرُ البليغُ المحكَمُ، وهو من روائعِ النَّظمِ القرآنيّ.

نوع (من) ودلالتها:

تنويع النَّعيم وتجدّد المتعة في تصوير الجنَّة

(مِن) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وفي كلٍّ تبعيضٍ معنى الابتداء[3]، وهيَ تُفيدُ أنَّ المُتَناوَلَ من تِلكَ الفَواكِهِ والطُّيورِ لَيسَ مُحيطًا بكُلِّها، بَل هوَ مُنتَقًى ومُتَخَيَّرٌ من بَينِ أنواعٍ كَثيرَةٍ، وفي ذَلِكَ إشعارٌ بتَعَدُّدِ أصنافِ المُتَعِ واتِّساعِ مَوارِدِ النَّعيمِ.

فَإنَّ التَّعبيرَ بـ (مِن) التَّبعيضيَّةِ يَدُلُّ على أنَّ ما يَتَخَيَّرونَ أو يَشتَهونَ إنَّما هوَ بَعضٌ مِمّا في الجَنَّةِ، لا كُلُّ ما فيها، وهوَ في ذاتِهِ يُؤَكِّدُ اتِّساعَ دائِرَةِ النَّعيمِ، ويوحي بأنَّ لَهُم في كُلِّ مَرَّةٍ تَخَيُّرًا جَديدًا ومُتَجَدِّدًا.

نوع (ما) ودلالتها:

رغبات السّابقين المقرّبين مُطلقةٌ لا حدَّ لها ولا قيد

(ما) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ موصولةٌ، وهيَ في مَحلّ مَفعولٍ بهِ ثانٍ لِفِعلَي ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ و﴿يَشْتَهُونَ﴾، أي: يَتَخَيَّرونَ ما يتخيَّرونَهُ، ويشتهون ما يشتهونَهُ، فجاءَت (ما) لِتَدُلَّ على كُلِّ مُتَخَيَّرٍ ومُشتَهًى، فتقع هنا (ما) على صفة من يعقل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشّمس: 5] أي: الباني[4]. وفي هَذا التَّعبيرِ إيماءٌ بَليغٌ إلَى سَعَةِ ما يُعطَونَهُ مِن

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 27.
(3) المُبرّد، المقتضب: 1/ 44، وابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/ 13.
(4) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 1/ 145، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 161.

أنواعِ الفَواكِه واللُّحوم، فلا يُقَيَّدُ نَعيمُهُم بصِنفٍ مَخصوص، بَل يَتَخَيَّرونَ ما شاءوا، ويَشتَهونَ ما أرادوا، ويُعطَونَ ذَلِكَ عَينًا، دونَ مَنٍّ ولا مَنع. بحَسَبِ الرَّغَباتِ المُتَنَوِّعَة، فهيَ لِلتَّفخيمِ والإبهامِ الَّذي يُفيدُ التَّنويعَ والإطلاقَ، وهوَ من دَقيقِ البَلاغَةِ القُرآنيَّة.

فائدة وصف الفاكهة بقوله: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾:

حـريّـة التَّـخَـيُّر في الجنّة نعيمٌ نفسيٌّ آخر فوق نعيم اللَّذَّة

وصف الفاكِهَةِ بقَولِهِ ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ جارٍ على سَبيلِ التَّكريمِ والتَّشويقِ، وقَد جاءَ ليُفيدَ أنَّ المُنعَمَ عَليهِم في الجَنَّةِ لَهُم حَقُّ التَّخَيُّر، وأنَّ الأمرَ لَيسَ على وجهِ الإلزامِ والتَّقييد، بَل يُقَدَّمُ لَهُم ما يَشتَهونَ ويَتَخَيَّرونَ، ويَتَنَقَّلونَ بَينَ أصنافِ الفَواكِهِ كَما يُحِبّونَ.

فالتَّخَيُّرُ يُفيدُ أنَّهُم لا يُعطَونَ نَوعًا مُحَدَّدًا مُقَدَّرًا، بَل هُم الَّذينَ يَنتَقونَ ويَتَخَيَّرونَ، وهَذا في نَفسِهِ مَظهَرٌ من مَظاهِرِ الإكرامِ وتَمامِ السُّرورِ، كَما أنَّهُ يُشيرُ إلَى تَجَدُّدِ النَّعيمِ وتَنَوُّعِه، فلا يَمَلُّهُ المُقَرَّبونَ، ولا يسأمون منهُ ولا يَكِلّونَ.

وَفي التَّعبيرِ عَنها بالمُفرَدِ (فاكِهَة) وإرادَةِ الجِنسِ إيماءٌ إلَى أنَّ جَميعَ ما يَتَناوَلونَهُ في مَجالِ الفَواكِهِ هوَ مِمّا يُريدونَهُ بذَوقِهِم وتَخَيُّرِهِم، فهم أصحاب التَّخَيُّر، وذَلِكَ أبلَغُ في السُّرورِ والدَّعَة.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾:

تـجـدُّد النَّـعـيـم ودوام لـــذَّة التَّخَيُّر إكرامٌ لم يعهذه النّاسُ

التّعبيرُ بصيغة الفعلِ المُضارِعِ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ في مَقامِ الإخبارِ عَن نَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ يَدُلُّ على تَجَدُّدِ التَّخَيُّرِ ودَوامِه، فهوَ لَيسَ فِعلًا يُفرَغُ مِنهُ، ولا أمرًا يَقَعُ مَرَّةً ويَنقَضي، بَل هوَ تَصويرٌ لِمَشهَدٍ دائِمٍ في زَمَنٍ لا يَنقَطِعُ، يقول ابن عاشور: (ما يتخيَّرون) الجنس الَّذي يتخيَّرونه ويشتهونه؛ أي يطوفون عليهم بفاكهة من الأنواع الَّتي يتخيَّرونها، ففعل ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يفيد قوَّة الاختيار"[1]. فكَأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُقَرَّبينَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

قَد خُيِّرَ في كُلِّ وقتٍ فتخيَّرَ ما يَلَذُّ لَهُ وتَهوَى نَفسُهُ، فهيَ لَذَّةُ التَّخيُّرِ فوقَ لَذَّةِ الطَّعامِ، وفي اختيارِ المُضارِعِ دونَ الماضي إشعارٌ بأنَّ هَذِهِ الحالَةَ دائِمَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ، كَأنَّها مُعايَنَةٌ.

دلالة إسناد فعل ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ للضَّمير:

الإشعارُ بأنَّ هذا النّعيم لا يكون إلّا لمن وفّقه الله أن يكونَ من السّابقين

إسنادُ فعلِ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ إلَى الضَّميرِ فيهِ إظهارٌ لِمَزيدِ الإكرامِ والتَّكريمِ، وتَفخيمٌ لِمَكانَتِهِم، وذَلِكَ أنَّهُ يَجعَلُهُم أهلَ الخيارَةِ في الجَنَّةِ، يَتَناوَلونَ ما يَشاءونَ ومِمّا يَشاءونَ، لا يُقتَصَرُ فيهِ على ما يُعرَضُ عَلَيهِم، بَل هُم الَّذينَ يَطلُبونَ، والجَنَّةُ تُجيبُهُم. وفي هَذا مَعنًى جَليلٌ في تَفويضِ الأمرِ إلَيهِم، وتَقديمِ إرادَتِهِم على التَّقديمِ المُعتادِ في مَجالِ الضِّيافَةِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِمّا يَتَناسَبُ مَعَ رِفعَةِ دَرَجَةِ السّابِقينَ، فالمَقصودُ تَصويرُهُم في حالِ مَن يُكرَمُ أعظَمَ إكرامٍ، بأن يُجعَلَ مُخَيَّرًا في نَعيمِهِ، لا مَفروضًا عَلَيهِ، فهوَ نَعيمٌ مَقرونٌ بالحُرِّيَّةِ والعِزَّةِ، فهُم أهلُ الأمرِ والنَّهيِ والاختيارِ في نَعيمِهِم، لا يُقَيَّدونَ بما يُقَدَّمُ إلَيهِم، بَل يُقَدَّمُ لَهُم ما يَختارونَ.

دلالة عطف ﴿وَلَحْمِ﴾ على السّابق:

بيانُ اكتمالِ مائدةِ الجنَّة بين التَّرف والذَّوق

عطفُ قوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ على قَولِهِ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ لتَكميلِ صورَةِ النَّعيمِ المَذكورِ في الجَنَّةِ، وتَفصيلِ أنواعِهِ؛ فإنَّ الفاكِهَةَ مِمّا يُتَناوَلُ لِلتَّلَذُّذِ والتَّرَفِ، واللَّحمَ مِمّا يُقصَدُ لِغِناهُ في الغِذاءِ وتَنويعِ الطَّعامِ، فكانَ ذِكرُهُ بَعدَ الفاكِهَةِ مِمّا يُشيرُ إلَى تَكميلِ نِعمَةِ الأكلِ في الجَنَّةِ.

وَمقتضى العطفِ أن يكونَ المَذكورُ ثانيًا لَيسَ مِن جِنسِ الأوَّلِ، بَل هوَ نَوعٌ آخَرُ مُستَقِلٌّ في التَّنعيمِ؛ لأنَّ عُرفَ المائِدَةِ أن تَتَنَوَّعَ فيها أصنافُ المَأكولِ، فجاءَ العَطفُ؛ ليُفيدَ تَعَدُّدَ النِّعَمِ وتَفاوُتَها، ولِيُشعِرَ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ في تَرَفٍ يَتَخَيَّرونَ فيهِ كُلَّ ما يَليقُ بالذَّوقِ واللَّذَّةِ والغِذاءِ، فالعَطفُ لِتَكميلِ صورَةِ المائِدَةِ في الجَنَّةِ، ولِإفادَةِ أنَّ أنواعَ النَّعيمِ مَفصولَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، لَيسَت جاريَةً على نَمَطٍ واحِدٍ، وذَلِكَ أبلَغُ

في الإكرامِ، وأدَلُّ على الفَخامَةِ.

نكتة إضافة (لحم) إلى لفظ ﴿طَيْرٍ﴾:

بيانُ أشهى أنواعِ اللُّحوم وأندرها في موائدِ أهل الدّنيا

أُضيف لفظ (لَحم) إلَى ﴿طَيْرٍ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لتُفيدَ تَخصيصًا وتَشهيرًا بنَوعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ المَأكولِ، هوَ أشهَى أنواعِ اللُّحومِ وأرَقُّها على النَّفسِ وألَذُّها في المَطعَمِ، وقَد كانَتْ لُحومُ الطَّيرِ مِمّا يَتَنافَسُ فيهِ المُتَرَفونَ؛ لِرِقَّتِهِ وخِفَّةِ مادَّتِهِ ونَداوَتِهِ، فذِكرُهُ دونَ غَيرِهِ مِنَ الأنواعِ يَدُلُّ على أنَّ النَّعيمَ المَذكورَ لا يَقتَصِرُ على الحاجَةِ، بَل يَبلُغُ مَبلَغَ الرَّفاهيَّةِ واللَّذَّةِ الخالِصَةِ.

وَفي هَذِهِ الإضافَةِ تَنويهٌ بنَوعِ المَذاقِ وخُصوصيَّةِ المَطعَمِ، كَما أنَّ في هَذِهِ التَّركيبَةِ تَفصيلًا لِما قَد يوهِمُهُ ذِكرُ اللَّحمِ على الإطلاقِ، فجاءَ التَّقييدُ ليُبَيِّنَ أنَّ المَقصودَ لَحمٌ ذو صِفَةٍ خاصَّةٍ، لا كَغَيرِهِ مِن لُحومِ البَهائِمِ، فذَلِكَ أدَلُّ على نُعومَةِ النَّعيمِ وفَخامَةِ الطَّعامِ.

وَفي الجُملَةِ: فإنَّ هَذِهِ الإضافَةَ تَحمِلُ في طَيّاتِها تَنويهًا بتَنَوُّعِ النَّعيمِ، وتَرقيَةً لِلتَّشويقِ، وإفادَةً لِأنَّ أهلَ الجَنَّةِ لا يُقَدَّمُ لَهُم إلّا ما يُحِبّونَ، ومِمّا يَشتَهونَ.

توجيه تخصيص الطَّير بالذِّكر:

الإيماءُ إلى أشهى اللُّحومِ وأعزِّها وجودًا وأطيبها مذاقًا

خصَّ النَّظم الكريم لحمَ الطَّيرِ بالذّكر في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لخصوصيَّةٍ في هذا النّوع من اللُّحوم، وهو أنَّ لَحمَ الطَّيرِ مِمّا تَشتَهيهِ النُّفوسُ أكثرَ من غيرِه، فهوَ أرَقُّ اللُّحومِ وأطيَبُها في الذَّوقِ، وأسهَلُها في الهَضمِ، وأنعَمُها في المَلمَسِ، وأحَبُّها إلَى الأثرياءِ وأهلِ الرَّغَدِ، وأندرها في الموائد؛ لصعوبةِ صيدِها.

وَفي تَخصيصِ الطَّيرِ دونَ سائِرِ أنواعِ الحَيَوانِ، إشعارٌ بأنَّهُ مَأكولٌ نَقيٌّ، طاهِرُ المَنبَتِ، لا يَكونُ في نَفسِ الإنسانِ نُفرَةٌ من أصلِهِ، بَل هوَ مِمّا يُتَصَوَّرُ أنَّهُ مَحضُ لَذَّةٍ خالِصَةٍ، ومِن ثَمَّ كانَ الطَّيرُ في

مَخيَلَةِ النّاسِ أليَقَ بالتَّنعيمِ.

نوع (من) ودلالتها:

جمال المطابقة وتمام الإكرام في وصف الطَّعام

(مِن) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، بيانيَّةٌ على التَّحقيقِ، تُفيدُ تبيينَ الجنسِ[1]، أي: لحمُ طيرٍ ناشئٌ من جنسِ ما يشتهون، لا من جنسٍ مفروضٍ عليهم، بل هو موافِقٌ لشهوتِهم، مطابقٌ لما تألَفُهُ نفوسُهم، وتأنسُ إليه رغباتُهم، وهذا أبلغُ في إكرامِهم، وأدلُّ على تكريمِهم؛ إذِ النِّعمةُ إذا جاءت على وفقِ الشَّهوةِ، كانت أتمَّ وقعًا في القلبِ، وأعظمَ أثرًا في النَّفسِ.

وتحتمل أن تكونَ تبعيضيَّةً، أي: لحمُ طيرٍ بعضُه ممّا يشتهون، وبعضُه ممّا لم يسبق لهم به علمٌ، فتكونُ الآيةُ مشعِرةً بتنوُّعٍ يتجاوزُ إدراكَهم، إلّا أنَّ هذا الاحتمالَ بعيدٌ عن المقامِ؛ لأنَّ السّياقَ جارٍ على وصفِ النَّعيمِ المطابقِ لتطلُّعاتِ أهلِه، كما في قولِه قبلَه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، وهو في غايةِ الملاطفةِ؛ إذِ التَّخييرُ لا يكونُ إلّا حيثُ يكونُ المرءُ هو الحاكمَ في انتقاءِ ما يَلتذُّ به، لا المفروضَ عليه فيما يُقدَّمُ له.

نوع (ما) ودلالتها:

متخيّرات الفواكه ومشتهيات اللُّحوم لا تقع تحت حصر، ولا يُحيط بها بصر

(ما) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ و﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مَوصولَةٌ، وتقع على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل[2]. قال سيبويه (ما) مبهمة تقع على كلِّ شيءٍ[3]. وهيَ تُفيدُ التَّنويعَ والتَّكثيرَ، فتَكونُ في مَعنَى: الَّذي يَتَخَيَّرونَهُ والَّذي يَشتَهونَهُ. وإفادَتُها هُنا تَنحو نَحوَ تَوسيعِ المُباحِ وإبداءِ التَّنَوُّعِ في مَجالِ النَّعيمِ، فإنَّ (ما) المَوصولَةَ تُفيدُ الاِشتِمالَ على كُلِّ ما يَقَعُ فيهِ التَّخَيُّرُ والاِشتِهاءُ مِن أنواعِ

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 357.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.

الفَواكِهِ والطُّيورِ، مِمّا يُناسِبُ مَقامَ البَذخِ والتَّرَفِ في نَعيمِ الجَنَّةِ.

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

رغباتُ المقرّبين متجدِّدةٌ بتجدُّدِ النّعيم ولذّة المطعوم

اختيارُ صيغَةِ المُضارِعِ في قَولِهِ تعالى: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، دونَ أن يُقالَ: (مِمّا اشتَهَوا)، تُفصِحُ عَن عُمقِ النَّظمِ في إفادةِ الاستمرار والتَّجَدُّد، ويَدُلُّ على تَكَرُّرِ الشَّهوَةِ وتَجَدُّدِ الرَّغبَةِ، وهَذا مِمّا يُصَوِّرُ نَعيمَ الجَنَّةِ في صورَةٍ دائِمَةٍ، لا تَفتُرُ ولا تَنقَضي، فهُم يُرزَقونَ فيما يُريدونَ كُلَّما جَدَّتِ الرَّغبَةُ وتَحَرَّكَتِ النَّفسُ إليه، فكَأنَّ نِعَمَ الجَنَّةِ تُساقُ إلَيهِم عَلى قَدَرِ اشتِهائِهِم وحَسَبِ مُرادِهِمُ المُتَجَدِّدِ.

وَفيه إشارَةٌ إلى أنَّ تِلكَ الرَّغَباتِ لا تَبلَى، ولا تَفتُرُ مَعَ الدَّهرِ، بَل تَبقَى في تَجَدُّدٍ دائِمٍ وتَجَديدٍ مُتَّصِلٍ، وفي هَذا تَصويرٌ لِأُفُقٍ نَعيميٍّ لا نَظيرَ لَهُ في الدُّنيا.

الفرق بين تخيُّر الفاكهة واشتهاء اللَّحم:

التَّخيرُ دليلُ كثرة الأنواع والاشتهاء دليل مطلب النّفس ورغبتها

آثَرَ النّظمُ الكريمُ ذكرَ الاشتهاءِ دونَ التّخيُّرِ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ والاشتِهاءُ: مَصدَرُ اشتَهَى، وهوَ افتِعالٌ مِنَ الشَّهوَةِ الَّتي هيَ مَحَبَّةُ نَيلِ شَيءٍ مَرغوبٍ فيهِ مِن مَحسوساتٍ ومَعنَويّاتٍ، والافتِعالُ فيهِ لِلمُبالَغَةِ[1]، وذلك أنَّ التَّخَيُّرَ في الفاكِهَةِ أبلَغُ في إبداءِ التَّنَوُّعِ وسَعَةِ العَرضِ، فإنَّ التَّفاكه تَقتَضي التَّنَقُّلَ بَينَ أنواعٍ مُختَلِفَةٍ وطُعومٍ مُتَباينَةٍ، فذَكَرَ فيها التَّخَيُّرَ لِما يُفيدُهُ ذَلِكَ مِن حُسنِ المُناسَبَةِ بَينَ المَقامِ واللَّفظِ.

وَأمّا في اللَّحمِ، فإنَّهُ في العادَةِ أقَلُّ تَنَوُّعًا فيما يُقصَدُ مِنهُ، وأقرَبُ إلَى مَقامِ الاشتِهاءِ الَّذي يُشيرُ إلَى الرَّغبَةِ النّفسيَّةِ القَويَّةِ في نَوعٍ مُعَيَّنٍ، فاختيرَ لَهُ التَّعبيرُ بفعل ﴿يَشْتَهُونَ﴾؛ لِإفادَةِ تَوَجُّهِ الرَّغبَةِ وتَعَلُّقِ النَّفسِ بالمَطلوبِ، فهوَ طَعامٌ يُقصَدُ لِذاتِهِ، لا لِلتَّنَوُّعِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

فيهِ. فجاءَ التَّخَيُّرُ في الفاكِهَةِ؛ لِإفادَةِ سَعَةِ العَرضِ، وجاءَ الاشتِهاءُ في اللَّحمِ؛ لِإبرازِ مَركَزِيَّةِ الرَّغبَةِ فيهِ، "وَلِأنَّ الاشتِهاءَ أعلَقُ بالطَّعامِ مِنهُ بالفَواكِهِ، فلَذَّةُ كَسرِ الشَّهيَّةِ بالطَّعامِ لَذَّةٌ زائِدَةٌ على لَذَّةِ حُسنِ طَعمِهِ، وكَثرَةُ التَّخَيُّرِ لِلفاكِهَةِ هيَ لَذَّةُ تَلوينِ الأصنافِ"[1]؛ فكِلا التَّعبيرَينِ مُناسِبٌ لِمَوضِعِهِ ومُعَبِّرٌ عَن حالِ المُنعَمِ عَلَيهِ في مَقامِ لَذّاتِ الجَنَّةِ.

دلالة التَّرتيب بذكر الأكواب فالفاكهة فلحم الطَّير:

تقديم المطعومات والمشروبات للذّة والمتعة لا للإشباع والإرواء

جاء ترتيبُ ذكرِ النِّعمِ في السّياقِ بَدءًا بالأكوابِ والأباريقِ وكَأسٍ مِن مَعينٍ؛ لِيُناسِبَ ما يُبدَأُ بِهِ عادَةً في مَجالِسِ التَّرَفِ، مِنَ السُّقيا والمَشارِبِ، إذ تَقَدُّمُ الشَّرابِ على الطَّعامِ مِمّا جَرَت بِهِ العادَةُ في المَوائِدِ الفاخِرَةِ.

ثُمَّ جاءَ ذِكرُ الفاكِهَةِ وهيَ مِمّا يُقدَّمُ تَرفيهًا وتَلَذُّذًا بَعدَ الشَّرابِ، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ إلَى أنَّهُم في رَغَدٍ ودَعَةٍ، يَتَخَيَّرونَ فاكهتهم، ويتلذَّذون بها، ثُمَّ ذُكِرَ لَحمُ الطَّيرِ، وهوَ مِمّا يَقصِدُ إلَيهِ أهلُ الشَّهوَةِ في الطَّعامِ، فجاءَ في الخِتامِ على وجهِ التَّتميمِ والتَّكميلِ لِأنواعِ النَّعيمِ المَأكولِ، وفي ذَلِكَ إشباعٌ لِكُلِّ مَيلٍ نَفسيٍّ، بَينَ تَرَفِ المَذاقِ في الفاكِهَةِ، وقوَّةِ الغِذاءِ في اللَّحمِ، وهو ما يُشعر بأنَّ أكلهم ليس عن جوعٍ بل عن متعةٍ ولذّة، ولو عكسَ لأفاد الأخرى.

فالآيَةُ راعَتِ التَّرتيبَ الطَّبيعيَّ في مَجالِسِ الأُنسِ والنَّعيمِ، وصَوَّرَتِ المَشهَدَ وفقَ ما يَتَطَلَّبُهُ الحالُ مِنَ الفَخامَةِ واللَّذَّةِ، وفي ذَلِكَ تَصويرٌ لِمَراتِبِ التَّنعيمِ الَّذي أُعِدَّ لِلسّابِقينَ المُقَرَّبينَ.

الحور نعمةٌ كبرى ومنّةٌ عظمى ينالُها المقرّبون

نوع الواو في قوله: ﴿وَحُورٌ﴾ ودلالتها:

الواوُ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ تحتمل أن تكونَ للعطفِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

على ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، أي: ويطوف عليهم حور عين[1]، فالحورُ يَطُفْنَ عليهم بذلك، كما الوَلائدُ في الدُّنيا، وقال أبو البقاء: أي: يَطُفْنَ عليهم للتَّنعُّم لا للخدمة، قال السَّمين: وهو للخدمةِ أَبْلَغُ؛ لأنَّهم إذا خدمهم مثلُ أولئك، فما الظَّنُّ بالمَوْطوءات[2] ؟ وتحتمل أن تكون على الاستئناف، أي: وفيها حور عين[3]، وهذا على قراءةِ رفع (حورٌ).

وَهَذا النَّوعُ مِنَ الاستِئنافِ لَهُ غايَةٌ بَلاغيَّةٌ، وهيَ أن يُفصَلَ بَينَ هَذا النَّعيمِ المُتَعَلِّقِ بالزَّوجاتِ الطّاهِراتِ في الجَنَّةِ، وبَينَ ما قَبلَهُ مِنَ النَّعيمِ المادّيِّ؛ ليَكونَ ذِكرُ الحورِ العينِ في مَقامٍ أعلَى ووَصفٍ أجَلَّ، فلا يُجعَلُ مَعطوفًا يُشارِكُ ما قَبلَهُ في المَنزِلَةِ، بَل يُستَأنَفُ بذِكرِهِ لِلتَّشريفِ والإعلاءِ.

وَممّا يُؤَيِّدُ هَذا أنَّ سياقَ الآياتِ قَدِ انتَقَلَ مِن ذِكرِ أصنافِ المُتَعِ الطَّعاميَّةِ والشَّرابيَّةِ، إلى ذِكرِ نِعمَةِ المُؤانَسَةِ والمُصاحَبَةِ الَّتي هيَ في أُفقٍ آخَرَ، ومَقامٍ أرقَى.

فالواو تُشبِهُ واوَ التَّفصيلِ أوِ الانتِقالِ، وتُفيدُ الاستِئنافَ بَعدَ اكتِمالِ سياقٍ سابِقٍ، فتَفتَتِحُ لِلسّامِعِ مَجالًا جَديدًا مِنَ النَّعيمِ في أُفُقٍ آخَرَ، وذلِكَ أبلَغُ في التَّصويرِ وأدقُّ في التَّنويعِ.

توجيه القراءات القرآنيّة:

في قَوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قِراءَتانِ مَشهورَتانِ؛ فقرأ أبو جعفر، وحمزة، والكسائيُّ بخفض الاسمين: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾، وقرأهما الباقون بالرَّفع[4]، فأمّا قِراءَةُ الجُمهورِ برَفعِ ﴿وَحُورٌ﴾ فسبق بيانها في النُّكتة السّابقة، وأمّا القِراءَةُ الثّانيَةُ فبِجَرِّ (وَحورٍ عينٍ) على أنّ (حور) عطف على ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾، في قَولِهِ: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، ويَكونُ المَعنَى: ويُرزَقونَ لَحمَ طَيرٍ وحورًا عينًا، فتَكونَ الحورُ جُزءًا مِن جِنسِ النَّعيمِ الَّذي يُرزَقونَهُ، كَما هوَ الطَّعامُ والشَّرابُ. أو على أنَّ (حور) عُطِفَ عَلى (أكواب)، أو يُعطَفُ على ﴿جَنَّتِ﴾، أي وفي حور عين، أي هُم في حورٍ عينٍ أو محاطُونَ بهنَّ ومحدِّقونَ بهنَّ والمُرادُ: أزواجُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.
(2) الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، السّمين الحلبيّ: 10/ 203.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 459.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 383.

السّابقينَ في الجنَّة وهُنَّ المَقصوراتُ في الخيام"[1].

تكامل المعاني بين الاستئناف والعطف متابعةً واستقلالًا

وَلِكُلٍّ وجهٍ مِنَ القِراءَتَينِ مَسلَكٌ في البَلاغَةِ ومَرامٌ في التَّصويرِ، فقِراءَةُ الرَّفعِ تُعطي وقعًا قويًّا في التَّفخيمِ والاستِقلالِ لِذِكرِ الحورِ، وتَجعَلُهُنَّ في سياقٍ مُمَيَّزٍ، أمّا قِراءَةُ الخَفضِ ففيها دَخولُ الحورِ في جُملَةِ ما يُنعَّمُ بِهِ، مَعَ تَضمينٍ لِرِقَّةِ الوَصفِ وتَدَرُّجِ السّياقِ مِنَ الطَّعامِ إلى الزَّوجِ، وكِلتا القِراءَتَينِ تَدخُلانِ في نِظامٍ واحِدٍ يُحَقِّقُ التَّنويعَ في البَيانِ، ويوَسِّعُ آفاقَ التَّدَبُّرِ، ويُؤَكِّدُ أنَّ عَجائِبَ أُسلوبِ القُرآنِ لا تَنقَضي.

الإيحاء النّاشئ عن الإفراد اللّفظيّ والجمع المعنويّ دليلُ عناية النّظم بالنّفس

نكتة إفراد (حور):

أُفرِدَ لَفظُ (حور) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ وهو في مَعنَى الجَمعِ؛ لما تَرجِعُ إلَيه هَذِهِ اللَّفظَةُ مِن قوَّةِ الإيحاءِ والتَّخصيصِ، فهيَ على صورَةِ المُفرَدِ، لَكِنَّها في المَعنَى جَمعٌ، كَقَولِهِم: رَهط وقَوم ونَفَر، وهوَ أفصَحُ في العَرَبيَّةِ وأدَلُّ على العظَمَةِ والتَّنويهِ، وقَدِ اختيرَت هَذِهِ الصّيغَةُ دونَ حوريّاتٍ أو نِساءٍ لِما في كَلِمَةِ (حور) مِن جَرسٍ صَوتيٍّ يُناسِبُ الجَمالَ والرِّقَّةَ، كَما أنَّها توحي بالقَصرِ في الوَصفِ على أنوَعٍ مَعلومَةٍ مُمَيَّزَةٍ، هُم أهلُ الحورِ العينِ، لا يُشارِكُهُم فيها أحَدٌ مِن نِساءِ الدُّنيا.

الأوصاف تقع من الموصوفات موقع البيان والتّصوير والتّرغيب

دلالة وصف الحور بالعين:

وُصفن الحورُ بأنَّهُنَّ ﴿عِينٌ﴾، وهوَ وصفٌ لَهُ دَلالَةٌ تصويريّة ونَفسيَّةٌ في آنٍ؛ فالحور العين: النِّساء ذوات الحَوَر، وذوات العَين وهو سعة العين[2]. فالـ ﴿عِينٌ﴾ جَمعُ عَيناءَ، وهيَ المَرأةُ الواسِعَةُ العَينِ، الَّتي يَكونُ بَياضُ عَينِها صافيًا وسَوادُها شَديدًا، وفي تَكبيرِ العَينِ دلالَةٌ عَلى الجَمالِ الظّاهِرِ، الَّذي يَفتِنُ القُلوبَ ويُجتَلَى في تَصاويرِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.

الحُسنِ، والوَصفُ بـ ﴿عِينٌ﴾ أعمَقُ مِن جمالِ الظّاهِرِ؛ فإنَّ العَينَ هيَ مَوضِعُ النَّظَرِ ومِرآةُ النَّفسِ، وفيها تَكونُ الخَصائِصُ المَكنونَةُ مِن حَياءٍ ووَقارٍ وتَوَقُّدٍ ووُدٍّ، فالوَصف يَجمَعُ بَينَ سِحرِ الجِسمِ وجاذِبيَّةِ الرّوحِ، والوَصفُ جاءَ في سياقٍ نَقيٍّ، طاهِرِ اللَّفظِ، يُبعِدُ الخَيالَ عَن أيِّ شائِبَةٍ مادّيَّةٍ دَنيَّةٍ، بَل يُحَلِّقُ بالذِّهنِ في أُفُقِ جَمالٍ مُقدَّسٍ، يوافِقُ مَقامَ المُقَرَّبينَ في جَنّاتِ النَّعيمِ.

تشبيه الحور باللُّؤلؤ المكنون استحضارٌ للصّورة وتجليةٌ للمشهد

نوع الكاف ودلالتها:

الكافُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ للتَّشبيهِ، وقَد جيءَ بها لِتَقريبِ المَعنَى إلَى ذِهنِ السّامِعِ، فإنَّ شَأنَ التَّشبيهِ أن يُقَرِّبَ المَعقولَ بالمَحسوسِ، أوِ الغائِبَ بالمَشهودِ، وقَد وقَعَ التَّشبيهُ هُنا على نَحوٍ يُشيرُ إلَى البَهاءِ والنَّقاءِ والصَّفاءِ، فشُبِّهَت الحورُ العينُ في حُسنِهِنَّ وبَهائِهِنَّ باللُّؤلُؤِ المَكنونِ، وهوَ الَّذي لَم تَمَسَّهُ الأيدي[1]، ولا أصابَهُ غُبارٌ، فهوَ أبلَغُ في صِفَةِ النَّقاءِ والجَمالِ، وفي اختيارِ الكافِ، تَوجيهٌ بَليغٌ في التَّشبيهِ البَصَريِّ المُتَخَيَّلِ، الَّذي يُثيرُ في النَّفسِ صورَةً ذِهنيَّةً تَجمَعُ مَعانيَ الجَمالِ والقيمَةِ، وذَلِكَ أنَّ اللُّؤلُؤَ إذا كانَ مَكنونًا فإنَّهُ أثمَنُ وأندَرُ، فكَذَلِكَ الحورُ هُم في مَنزِلَةٍ عاليَةٍ مِنَ الحُسنِ والمَكانَةِ.

تشبيهُ الجمعِ بالجمعِ تصويرٌ للجمالِ بعديد أنواعه

بلاغة جمع (أمثال):

جَمعُ (أمثال) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ دونَ إفرادِهِ يَحمِلُ دِقَّةً بَلاغيَّةً تَتَناسَبُ مَعَ سياقِ المَدحِ والتَّنويعِ، فإنَّ جَمعَ (أمثال) يُشيرُ إلَى تَعَدُّدِ صوَرِ الجَمالِ وتَنَوُّعِ التَّمثيلِ، فكُلُّ واحِدَةٍ مِنَ الحورِ العينِ لَها تَمثيلٌ مُختَصٌّ في الجَمالِ، فهيَ لَيسَت على وتيرَةٍ واحِدَةٍ، بَل كُلُّ واحِدَةٍ مِنهُنَّ تَتَمَيَّزُ في جَمالِها ونَضارَتِها، فشُبِّهَ كُلُّ

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 206.

بَلُؤْلُؤَةٍ فائِقَةِ الصَّفاءِ والنَّقاءِ[1].

وَفي هَذا تَنويعٌ يُفيدُ تَعدُّدَ وُجوهِ البَهاءِ، فلَيسَ التَّشبيهُ على وجهٍ واحِدٍ، بَل هوَ تَشبيهٌ مُتَعَدِّدُ الأوجُهِ، يُعَبِّرُ عَن أنَّ في كُلِّ واحِدَةٍ مِنَ الحورِ ما يُشبِهُ اللُّؤلُؤَ في وجهٍ ما، ويَفوقُهُ في وجهٍ آخَرَ، فالمُشَبَّهات كَثيرَةٌ، والمُشَبَّهَ بِهِ أيضًا كَثيرٌ، فهو تشبيهُ جمعٍ بجمعٍ.

صـورةُ الحـورِ العين لا تتخيّلها نفسُ البشرِ ولا تُـدرك حقيقتها عقولُ النّاس

فائدة دخول الكاف على (أمثال):

في قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾؛ الكافُ للتَّشبيهِ، والمثلُ حقيقةٌ فيهِ، فلو قالَ: أمثالَ اللُّؤلؤِ المكنونِ، لم يكن إلى الكافِ حاجةٌ، أو العكس: (كاللُّؤلؤ المكنون)؛ فيكون وجهُ الجمعِ بينَ كلمتَي التَّشبيهِ؛ بإفادةِ التَّوكيد والزِّيادة في التَّشبيهِ[2]، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: 11]. والمعنى: هنَّ أمثالُ اللُّؤلؤ المكنون[3].

وإنَّ فوائِدَ دُخولِ (الكاف) على لَفظِ ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ دونَ أن يَقولَ (كاللُّؤلؤ) مُنفَصِلَةٌ عَن دِقَّةِ التَّشبيهِ ورِقَّةِ التَّعبيرِ، فإنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾ أبلَغُ في التَّرقيقِ والتَّوسيطِ بَينَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ؛ لأنَّ ذِكرَ (الأمثال) يَفيدُ أنَّ المُشَبَّهَ لَيسَ عَينَ اللُّؤلُؤِ، بَل مِثلُهُ في الجَمالِ والبَهاءِ والنَّقاءِ، والجمالُ الحقيقيُّ للحورِ العينِ لا تتصوّره متخيّلات النّاسِ.

الإضافةُ بيانيَّةٌ فـهـي لتـنـويـع الـتَّـشـبـيـه وتوسيع المعنى

نوع إضافة ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ للفظ ﴿ٱللُّؤْلُوِ﴾:

إنَّ إضافَةَ ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ إلَى ﴿ٱللُّؤْلُوِ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ هيَ إضافَةٌ بَيانيَّةٌ على نَحوِ: (أمثالٌ مِنَ اللُّؤلؤ)، وهيَ في التَّحقيقِ مِن قَبيلِ الإضافة المحضة الَّتي يُراد بها التَّفسير والتَّمييز، فهيَ لَيسَت إضافَةَ تَمَلُّكٍ ولا مِلكيَّةٍ ولا مَحضَ نِسبَةٍ، بَل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 295.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 135.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.

إضافَةٌ تَفسيريَّةٌ تُرادُ لِبَيانِ ماهيَّةِ المُضافِ.

وَفي هَذا التَّركيبِ تَحديدٌ لِوَجهِ الشَّبَهِ، فكَأنَّهُ قيلَ: كَأشياءَ تُماثِلُ في جَمالِها ونَقائِها ورِقَّتِها ذاتَ اللُّؤلُؤِ المَكنونِ، فالإضافَةُ هُنا لِتَقريبِ المُشَبَّهِ بِهِ إلَى الذِّهنِ، وإفادَةِ أنَّ المُشَبَّهَ في حُسنِهِ لا يُماثِلُ اللُّؤلُؤَ نَفسَهُ، بَل يُماثِلُ ما يُشبِهُهُ مِن أنواعِ الجَمالِ الَّتي يُصَوِّرُها اللُّؤلُؤُ المَصونُ في مَحَّارِهِ.

تنقيةُ الحور من شوائب السّهر وكدرِ التّعب وتصوير صفاء لونِها ونقاء رسمها

فائدة تشبيه الحور العين باللُّؤلؤ المكنون:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ اختيارَ اللُّؤلؤِ المكنونِ مشبَّهًا بِهِ للحورِ العينِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ دونَ غَيرِهِ مِنَ الجَواهِرِ أوِ المَعادِنِ، وذلك أنَّ اللُّؤلُؤَ في نَفسِهِ مَثَلٌ في الصَّفاءِ والنَّقاءِ والبَهاءِ[1]، وإذا وُصِفَ بالمَكنونِ، أي: المَصونِ في صَدَفاتِهِ، الَّذي لَم تَمَسَّهُ أيدٍ ولَم ترَه أبصارٌ، ولم يقع عليه غبار؛ فهو أشدُّ ما يكون صفاءً[2]، كانَ في ذَلِكَ إشارَةٌ إلَى كَمالِ النَّقاءِ وصَونِ الحورِ وطُهرِهِنَّ.

وَفي هَذا التَّشبيهِ تَجريدٌ لِلجَمالِ مِن كُلِّ شائِبَةٍ، وتَصويرٌ لِلحورِ بصورَةٍ تَجمَعُ بَينَ الحُسنِ الذّاتيِّ والطَّهارَةِ الخُلُقيَّةِ، فهُنَّ كَأنَّهُنَّ جَواهِرُ مَكنونَةٌ لَم تَخرُج بَعدُ إلَى الأنظارِ، مِمّا يُفيدُ التَّفَرُّدَ والخُصوصيَّةَ لأهلِ الجَنَّةِ.

واختيارُ اللُّؤلُؤِ - دونَ الذَّهَبِ أوِ المَرجانِ - لِما فيهِ مِن بَياضٍ نَقيٍّ ورِقَّةٍ ولَمَعانٍ هادِئٍ، يُناسِبُ وصفَ العينِ اللَّواتي هُنَّ في غايَةِ الدَّلالَةِ والرِّقَّةِ واللُّطفِ.

الجمع بين الجمال المصون الظّاهر والطُّهر المعنويّ الباطن

غرض وصف ﴿ٱللُّؤۡلُوِ﴾ بـ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾:

وَصفُ ﴿ٱللُّؤۡلُوِ﴾ بصفةِ ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ يَحمِلُ دِقَّةً بَيانيَّةً فائِقَةً، تَتَجَلَّى في إرادَةِ التَّشبيهِ البَليغِ لِلحورِ العينِ، إذ لَم يُرِدِ القُرآنُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 179.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 1/ 4790.

تَشبيهَهُنَّ باللُّؤلُؤِ فقَط، وإنَّما باللُّؤلُؤِ المَصونِ الَّذي لَم تمَسّهُ أيدٍ ولا تَطَلَّعت إلَيهِ أبصارٌ؛ فإنَّ المَكنونَ في اللُّغَةِ هوَ المُخَبَّأُ المَصونُ المخزون لنفاسته[1]، وإذا أُضيفَ إلَى اللُّؤلُؤِ فإنَّهُ يُفيدُ المَزيدَ مِنَ النَّقاءِ والطَّهارَةِ والسَّترِ، فالمُراد بذَلِكَ تَصويرُ عِفَّةِ الحورِ وصيانَتِهنَّ، فهُنَّ في طَهارَةٍ كَطَهارَةِ اللُّؤلُؤِ الَّذي لَم يَلِجهُ ما يُفسِدُهُ، ولَم يَخدِش صَفاءَهُ ما يَنْقُصُ مِن جَمالِهِ؛ كما قال الضَّحّاك: "اللُّؤلُؤ العِظام الَّذي قد أكنَّ من أن يمسَّهُ شَيء[2]. وفي ذَلِكَ تَعريضٌ بَليغٌ بنقص جمال نساءِ الدُّنيا وكَمالِ صِفاتِ الحورِ، وأنَّهُنَّ مَعَ جَمالِ الظّاهِرِ قَد كَمُلنَ في جَمالِ الباطِنِ، فجَمَعنَ بَينَ نُضرَةِ المَنظَرِ وصَونِ المَعنَى، وفي ذَلِكَ تَغريبٌ لِقَلبِ السّامِعِ في تَصَوُّرِ ما أعَدَّهُ اللّه لِعِبادِهِ المُقَرَّبينَ.

كَذَلِكَ فإنَّ هَذا الوَصفَ يُفيدُ التَّفريقَ بَينَ ما يُظَنُّ أنَّهُ حَسَنٌ فقَط لِمَظهَرِهِ، وبَينَ ما كَمُلَ في المَظهَرِ والمَخبَرِ، فشَبَّهَهُنَّ باللُّؤلُؤِ المَكنونِ تَعظيمًا لِصَفاءِ ذاتِهنَّ وصَونِهنَّ ورِفعَةِ مَكانَتِهنَّ.

تفخيم المعهود وتصوير الجمال المحجوب

فائدةُ تعريف ﴿ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾:

تَعريفُ اللُّؤلُؤِ المَكنونِ دون أن يقول: (كأمثال لؤلؤٍ مكنون) يَحمِلُ دَلالَةً تَفخيميَّةً وتَعظيميَّةً، إذِ المَعرِفَةُ تَفيدُ المَعهوديَّةَ، وهوَ المَعهودُ في الأذهانِ مِنَ اللُّؤلُؤِ العالي القيمَةِ المُصانِ، وهو الَّذي يقتصر على أنْ يوصف بأنّه اللُّؤلؤ المكنون.

فالمُشَبَّه بِهِ هُنا لَيسَ لُؤلُؤًا مُطلَقًا، بَل هوَ ذَلِكَ الَّذي تَعرِفُهُ النُّفوسُ وتَشتَهيهِ القُلوبُ مِن أشرَفِ أنواعِ اللُّؤلُؤِ، فالتَّعريفُ يَخرُجُ بالمُشَبَّهِ إلَى أرفَعِ دَرَجاتِ الشَّبَهِ، فتَكونُ الحورُ العينُ في غايَةِ النَّقاءِ والطَّهارَةِ والبَهاءِ، لا يُنالُ جَمالُهُنَّ بالوَصفِ، ولا يُقارَبُ بالنَّظَرِ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.
(2) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 8/ 11.

دلالة اختيار مفردة ﴿جَزَآءً﴾:

الـجـزاء جامعٌ بين لفت الانتباه إلى الاستحقاق وبـيـان الفضل فـي بـلـوغ رتبة الاستحقاق

آثر النّظم الكريمُ تَخصيصَ العَطاءِ الإلَهيِّ بلَفظِ ﴿جَزَآءً﴾ دونَ (ثَوابًا)؛ وذلك لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ من نَعيمٍ عَظيمٍ لِلسّابِقينَ إنَّما هوَ مُقابِلٌ لِما بَذَلوهُ[1] في سَبيلِ اللّه، وما تَحَمَّلوهُ مِنَ المَشَقَّةِ والاجتِهادِ في الطّاعَةِ، فتكون هذه الرُّتب والنِّعم هي لهم بحسب أعمالهم؛ لأنّ المنازل والقسم في الجنَّة، هي على قدر الأعمال[2].

وَفي لَفظِ ﴿جَزَآءً﴾ ما يُشعِرُ بالموافَقَةِ بَينَ العَمَلِ والمُقابِلِ، على وجهِ الكَرَمِ والتَّكريمِ، فلَم يُرِدِ القُرآنُ هُنا أن يُبرِزَ فقَط صِفَةَ النَّعيمِ، بَل قَصَدَ أن يُرَكِّزَ على أنَّهُ نَتيجَةُ اجتِهادٍ وعَمَلٍ، وأنَّ سِرَّ الفَضلِ هوَ في كَونِهِ جَزاءً، كَما يُشعِرُ بهِ لَفظُ ثَوابٍ الَّذي يَتَّسِعُ لِلهِباتِ المَحضة؛ فناسب اختيارُ لفظ ﴿جَزَآءً﴾ في هَذا المَقامِ سياقَ المُفاضَلَةِ بَينَ الفِئاتِ، وتَقديمِ السّابِقينَ على غَيرِهِم، ففيهِ تَقريرٌ لِمَبدَإِ العَدلِ والتَّرتيبِ الحَقيقيِّ لِلمَنازِلِ، وتَسليَةٌ لِأولَئِكَ الَّذينَ تَحَمَّلوا المَشاقَّ وفازوا بالمَسابِقَةِ.

الأعـمـال عـلـلُ الجزاءِ والجزاءُ فـضـلٌ امـتـنـانٍ بالتّوفيق لصالح الأعمال

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ باءُ السَّبَبيَّة[3]، وهيَ تَدُلُّ على أنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الجَزاءِ العَظيمِ لِهَؤُلاءِ السّابِقينَ، إنَّما كانَ بسَبَبِ أعمالِهِم الَّتي قَدَّموها في الدُّنيا، فهيَ باءٌ تُفيدُ العِلِّيَّةَ الغائيَّةَ، أي إنَّ هَذا النَّعيمَ جاءَ مُعَلَّلًا بعَمَلِهِم، وهو تَنويهٌ بقيمَةِ العَمَلِ في ميزانِ الشَّرعِ، ويَشيرُ إلَى أنَّ نَيلَ تلكَ المَراتِبِ الرَّفيعَةِ كان بالعملِ الصّالح، فهو عَدلٌ إلهيٌّ وفضلٌ رباني ومُقابَلَةٌ لِما قَدَّموا.

جميع الأعمال الصّالحة مُثمرةٌ فـي الـجـنّـات مـعـذوقـةٌ بـأسـبـاب الرَّحمات

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 243.
(3) ابن عثيمين، تفسير الحجرات - الحديد: 1/ 335.

نوع (ما) ودلالتها:

(ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلِّ جرٍّ بالباءِ، والمعنَى: جزاءً بسببِ الَّذي كانوا يعملونَهُ في حياتِهِمُ الدُّنيا مِنَ الصّالحاتِ والطّاعاتِ. وتقع (ما) على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات من يعقل[1]. وقد جيءَ بـ (ما) الموصولةِ هُنا للدّلالةِ على العُمومِ، فتشمَلَ كلَّ ما اتَّصلَ بعملِهِم مِن قولٍ أو فعلٍ، جليلٍ أو دقيقٍ.

وفي هذا التَّركيبِ خَتمٌ للنَّعيمِ الموصوفِ بأنَّهُ جزاءٌ، وهو ثمرةُ السَّعيِ، ونتيجةُ ما عكَفَ عليهِ أولئكَ السّابقونَ مِنَ الطّاعاتِ، فصيغَ الخطابُ صياغةً تُشعِرُ بعدلِ الجزاءِ وكرمِ العطاءِ معًا، كما هيَ سنَّةُ اللهِ في معاملةِ عبادِهِ.

صالحات السّابقين المقرّبين سلوكٌ دائم لا عمل عارض

نكتة ذكر ﴿كَانُواْ﴾:

ذِكرُ فِعلِ ﴿كَانُواْ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ أن يَقولَ: (بِما عَمِلوا) يفيدُ الاستمرارَ والثَّباتَ على العَمَلِ، فإنَّ (كانَ) فِعلٌ ناقِصٌ يُستَعمَلُ للدّلالَةِ على الوَصفِ بالشَّيءِ في زَمَنٍ ماضٍ مَعَ إفادَةِ الدَّوامِ والاتِّصالِ، وهوَ في هَذا السّياقِ يُفيدُ أنَّ الأعمالَ الَّتي جوزوا بها كانَت دَأبًا لَهُم وسَجيَّةً، لا حالاتٍ عارِضَةً، ولا أفعالًا مُنفَصِلَةً في الزَّمَنِ. فلَو قيلَ: (بِما عَمِلوا)، لاحتَمَلَ أن تَكونَ أعمالًا واقِعَةً مُنقَطِعَةً، ولَم يُفِد استمرارَها وتَجَذُّرَها في حَياتِهِم، وهَذا لا يوائِمُ مَقامَ مَدحِ السّابِقينَ المُقَرَّبينَ. فذِكرُ ﴿كَانُواْ﴾ يَزيدُ في تَوقيرِ تِلكَ الأعمالِ، ويُشيرُ إلَى أنَّها كانَت مَلَكَةً نَفسيَّةً وحالًا راسِخًا، وبِذَلِكَ تَكونُ أجدَرَ بالجَزاءِ العَظيمِ.

توكيد ديمومة العملِ واستمرار أسبابه في رجاء الجنّات

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

جاء التّعبيرُ بصيغَةِ الفعلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لإفادةِ التَّجَدُّد

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.

والاستمرار، وإذا أُدخِلَ في سياقِ ماضٍ - كَمعنَى قَولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ - فإنَّهُ يُشيرُ إلَى أنَّ تِلكَ الأعمالَ كانَت مُتَجَدِّدَةً مُتَكَرِّرَةً في أزمِنَةٍ مُتَعاقِبَةٍ، لَم تَكُن مَرَّةً واحِدَةً ولا فِعلًا طارِئًا.

أعمالُ السّابقين المقرّبين عن وعيٍ وقصد في النّيّة

فَجَمَعَ تَعبيرُ ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بَينَ دلالَةِ الاستمرارِ الزَّمَنيِّ الَّتي تُفيدُها كانَ، ودلالَةِ التَّجَدُّدِ الفِعليِّ الَّتي يُفيدُها المُضارِعُ، فكانَ في ذَلِكَ تَصويرٌ دَقيقٌ لِحالِهِم في الدُّنيا: أنَّهُم كانوا على طاعَةٍ دائِمَةٍ، وعَمَلٍ لا يَنقَطِعُ، يُجَدِّدونَ فيهِ القَصدَ، ويواصِلونَ فيهِ الجِهادَ.

فائدة استعمال مفردة (العمل):

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمال مفردة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دونَ (يَفعَلونَ) وذلك أنَّ العَمَلَ في مَجاري الخِطابِ يُفيدُ مَعنَى الاجتِهادِ والتَّكَلُّفِ والمُثابَرَةِ على ما يُرادُ مِنهُ، ويَدُلُّ على التَّرتيبِ والانتِظامِ والنِّيَّةِ القاصِدَةِ، خِلافًا لِلفِعلِ، فإنَّهُ أعَمُّ، ويُطلَقُ على ما يَكونُ صادِرًا بلا تَروٍّ ولا تَدَبُّرٍ، وقَد يَشمَلُ ما يُستَحسَنُ وما يُستَقبَحُ.

لا ينصرف ذهنُ المتلقّي إلّا لعموم أعمال الخير

فاختيارُ لَفظِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في مَقامِ المَدحِ والجَزاءِ إنَّما هوَ لِلدّلالَةِ على أنَّ أعمالَ السّابقينَ كانَت صادِرَةً عَن عِلمٍ وبَصيرَةٍ وإخلاصٍ، مُمَحَّصَةً في نيَّتِها، مُتقَنَةً في أدائِها، وهوَ ما يُناسِبُ مَقامَ القُربِ والمَجدِ في الجَنَّةِ.

غرض حذف المتعلّق بالفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

حُذِفَ المُتَعَلِّقُ بالفِعلِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ والإطلاقِ، فكَأنَّهُ قيلَ: (بِجَميعِ ما كانوا يَعمَلونَ)، مِن أنواعِ الخَيرِ، وصُنوفِ الطّاعاتِ، وأعمالِ البِرِّ، دونَ أن يُقَيَّدَ بِعِبادَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أو طاعَةٍ خاصَّةٍ.

فَهوَ إيجازٌ في اللَّفظِ، واتِّساعٌ في المَعنَى، يُفيدُ أنَّ هَذا الجَزاءَ العَظيمَ الَّذي هُم فيهِ، إنَّما هوَ جَزاءٌ على سيرَتِهِمُ العامَّةِ في الدُّنيا، وأعمالِهِمُ المُتَكَرِّرَةِ المُخلِصَةِ. وفي ذَلِكَ تَعليمٌ لِأهلِ الإيمانِ أنَّ

الجَزاءَ المَذكورَ لا يَأتي بعَمَلٍ عارِضٍ، ولا طاعَةٍ واحِدَةٍ، ولَكِنَّهُ ثَمَرَةُ عَمَلٍ دائِبٍ، وسُلوكٍ مُستَقيمٍ، ونَهجٍ راسِخٍ في حَياةِ المُقَرَّبينَ.

نفي سماع المكروهات أمدح من إثبات سماع الطيّبات

نكتة نفي سماع اللَّغو بدل إثبات سماع طيِّب الكلام:

آثر النّظم الكريمُ نفيَ سماع اللَّغو والتّأثيم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ دون إثبات سماع الكلام الطّيِّب؛ وذلك لأنَّ الإثباتَ لا يدفع النّفي بسماع المكروه، ونَفيَ المَقبوح أبلَغُ في الثَّناءِ مِن إثباتِ المَحمودِ؛ لِأنَّهُ يَشمَلُ التَّطهيرَ الكُلّيَّ، ويَدُلُّ على أنَّ ما يُسمَعُ فيها لا يَشوبُهُ شَيءٌ مِن شَوائِبِ الدُّنيا. فاللَّغوُ والتَّأثيمُ قَد كانا مِمّا يُكدِّرُ الجَلَساتِ في الدُّنيا، فنَفَى اللّهُ ذَلِكَ نَفيًا قاطِعًا في الجَنَّةِ؛ ليُفيدَ أنَّها دارُ نَقاءٍ وتَطهيرٍ لِلحِسِّ والمَعنَى، لا يَسمَعُ فيها المُقَرَّبونَ ما يُذهِبُ بَهْجَةَ الجَليسِ، ولا ما يُقَذّي سَمعَهُ، "وهي نعمةٌ روحيَّةٌ فإنَّ سلامةَ النَّفس من سماعِ ما لا يُحَبُّ سماعُه ومن سماعِ ما يُكره سماعُه من الأذى نعمةٌ براحة البال وشغله بسماع المحبوب"[1].

نفي سماع اللَّغو والتَّأثيم مستمرٌّ باستمرار نعيم الجنّة

نكتة نفي الفعل المضارع ﴿يَسْمَعُونَ﴾:

نَفيُ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ في هَذا السّياقِ يُفيدُ الاستِمرارَ والتَّجَدُّدَ، فجاءَ النَّفيُ ليَدُلَّ على أنَّ سَماعَ اللَّغوِ والتَّأثيمِ لَيسَ حاصِلًا في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا يَتَجَدَّدُ أبَدًا، فهوَ نَفيٌ مُستَمِرٌّ في كُلِّ حالٍ وفي كُلِّ زَمانٍ، ففي صيغَةِ المُضارِعِ المَنفيِّ إبرازٌ لِطَبيعَةِ الجَنَّةِ أنَّها دارُ تَنزيهٍ تامٍّ، فلا يَجري فيها مِثلُ هَذا الكَلامِ الهابِطِ، ولا يَستَمِعُ إلَيهِ ولا يَسمَعُهُ أحَدٌ، ولا يُحتَمَلُ فيها وُقوعُهُ ولا تَجَدُّدُهُ.

تنزيه الجنان من اللَّغو والآثام

دلالة حرف الظَّرفية:

إنَّ تَعلُّقَ الظَّرفِ بالفِعلِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِيهَا﴾، يَحمِلُ دَلالَةً عَظيمَةً في التَّصويرِ البَيانيِّ لِعالَمِ الجَنَّةِ، فإنَّ حَرفَ الظَّرفيَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.

(في) يُفيدُ أنَّ المَكانَ - وهوَ الجَنَّةُ - مُنَزَّهٌ بذاتِهِ عَن وُقوعِ هَذا النَّوعِ مِنَ الكَلامِ المَذمومِ، والمَعنَى: لا يوجَدُ في جَنّاتِ النَّعيمِ مَكانٌ يُمكِنُ أن يَسمَعَ فيهِ المُقَرَّبونَ لَغوًا أو تَأثيمًا، فهيَ بيئَةٌ صافيَةٌ، وسَماؤُها طاهِرَةٌ، وأرضُها نَقيَّةٌ، لا يَجِدُ فيها السّامِعُ إلّا ما يُريحُ السَّمعَ ويُنَقّيهِ.

حضورُ النِّعَمِ في النَّفسِ واستصحابها في القلبِ تُنادي على مكانِها

نكتة الإضمار بعد تباعدِ مرجع الضّمير:

جاء ذكر الجنّة مضمرًا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ والضَّمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1]، وإنَّ في الإضمارِ في قَولِهِ: ﴿فِيهَا﴾ - بَعدَ أن طالَ ذِكرُ نَعيمِ الجَنَّةِ وأنواعِهِ - نُكتَةً بَلاغيَّةً دَقيقَةً، تُفيدُ تَرسيخَ المَعنَى في الذِّهنِ، وإيجازَ العِبارَةِ بَعدَ إطنابٍ في التَّفصيلِ؛ فإنَّهُ لَمّا تَرادَفَ ذِكرُ الأنعُمِ والمَناظِرِ والمَطاعِمِ في الجَنَّةِ، وتَعَدَّدَتِ الجُمَلُ والمَواصِفُ، كانَ الأولَى في سياقِ الفَصاحَةِ الإضمارُ، وإضمارُ ذِكرِ الجَنَّةِ في قَولِهِ ﴿فِيهَا﴾، بَعدَ أن تَكَرَّرَ ذِكرُها في صوَرٍ مُختَلِفَةٍ: كَـ ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وذِكرِ السُّرُرِ والوِلدانِ والفَواكِهِ، إشارَةٌ إلَى أنَّ السّامِعَ صارَ يُدرِكُ أنَّ كُلَّ هَذا يَجري في مَكانٍ واحِدٍ هوَ الجَنَّةُ، فلا حاجَةَ لِتَكرارِ اسمِها.

توكيدُ نفي سماعِ المكروهات في الجنّات، برهانُ نقائها من كريه الأصوات

غرض تقديم ﴿فِيهَا﴾ على المفعول:

قُدِّم ذكرُ الظَّرفِ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿لَغۡوًا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ لإفادةِ القَصرِ والاختِصاص[2]. وهيَ غايَةٌ بَلاغيَّةٌ تُؤَكِّدُ أنَّ عَدَمَ سَماعِ اللَّغوِ والتَّأثيمِ مُقتَصِرٌ على ما يَكونُ داخِلَ الجَنَّةِ، لا في غَيرِها، وهوَ تَقديمٌ يُفيدُ التَّوكيدَ على أنَّ سَكينَةَ الجَنَّةِ لا تُخدَشُ، ولا يُدرَكُ فيها سَماعٌ يُنَفِّرُ، فالبِلادُ المُقَدَّسَةُ صارَت في أساسِها مَهوًى لِلكَلِمِ الطَّيِّبِ، ومَنفًى لِكُلِّ لَغوٍ وفُحشٍ.

تدرّج التَّنزيه من اللَّغو إلى التَّأثيم إحاطةٌ بنفي كلِّ ما يُعكِّر صفوَ الجنان

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 297.

(2) حسن طَبَل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 127 - 128.

توجيه تخصيص اللَّغو والتَّأثيم بالذِّكر:

جُمِع في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ نفي سماعِ اللَّغو والتّأثيم، واللّغوُ: هو "الكَلامُ الَّذي لا يُعتدّ به كالهَذَيان، والكَلام الَّذي لا مُحصِّلَ له. والتَّأثيمُ: اللَّوم والإنكار، وهو مصدرُ (أثَّم)، إذا نَسبَ غيرَه إلى الإثم"[1]. وتَخصيصُ اللَّغوِ والتَّأثيم بالذِّكرِ يُفيدُ إشارَةً بَليغَةً إلَى تَمام تَنَزُّهِ مَجالِسِ أهلِ الجَنَّةِ؛ لِأنَّ اللَّغوَ هوَ ما لا طائِلَ تَحتَهُ مِنَ الكَلامِ، والتَّأثيمَ ما يَحمِلُ في طَيّاتِهِ إثمًا أو يوقِعُ في الذَّنبِ، فجُمِعَ بَينَ ما لا نَفعَ فيهِ وما فيهِ ضَرَرٌ.

وَهَذا تَقريرٌ لِصِفَةِ أهلِ الجَنَّةِ وسُكناها، فهُم في مَجالِسِها لا يُسمَعُ فيها صَوتٌ باطِلٍ، ولا تُفتَتَحُ بفُحشٍ، ولا تُفضي إلَى ذَنبٍ، فإذا نُفيَ اللَّغوُ والتَّأثيمُ، فهوَ تَطهيرٌ لِلمَجالِسِ والمُخاطَباتِ، وهوَ مِمّا يُقَوّي رَونَقَ النَّعيمِ الرّوحيِّ كَما يُكمِّلُ النَّعيمَ الحِسّيَّ.

نفي اللَّغو بأبلغ وجوهه دلالة التَّنكير على التَّمام في التَّنزيه

غرض تنكير لفظ ﴿لَغْوًا﴾:

نُكِّر لفظ ﴿لَغْوًا﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ لتعميم اللَّغوِ المَنفيِّ، فهوَ نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفي تُفيدُ الشُّمولَ والاستِغراقَ، كَأنَّهُ قيلَ: (لا يَسمَعونَ في الجَنَّةِ شَيئًا مِمّا يُعَدُّ لَغوًا على أيِّ وجهٍ كانَ)، فالتَّنكير لإرادةِ الجنس. من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: 62][2].

وهَذا مِن أبلَغِ أنواعِ التَّنزيهِ والتَّنقيَةِ لِجَوِّ الجَنَّةِ، فلا يُسمَعُ فيها ما يَذهَبُ نَفعُهُ، ولا ما يَشغَلُ الذِّهنَ بما لا جَدوَى فيهِ، فهوَ نَفيٌ لِلصَّغيرِ والكَبيرِ مِنَ اللَّغوِ، وذَلِكَ أبلَغُ في التَّشويقِ والتَّكريمِ.

نفي اللَّغوِ كنفي التَّأثيم في ارتفاع سماع كليهما في الجنّة

دلالة تكرار ﴿لَا﴾:

تكرار ﴿لَا﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 296.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

يَحملُ في طَيّاتِهِ تَوكيدًا وتَفصيلًا، وذَلِكَ مِن بَلاغَةِ التَّنزيهِ التّامِّ الَّذي يُرادُ بِهِ تَطهيرُ أجواءِ الجَنَّةِ مِن كُلِّ ما يُكَدِّرُ الخاطِرَ أو يَشينُ المَجالِسَ. فلَو قيلَ: (لا يَسمَعونَ فيها لَغوًا وتَأثيمًا) لَدَلَّ ذَلِكَ على نَفيِ الجُملَةِ في كُلّيَّتِها، ولَكِنَّ تَكرارَ ﴿لَا﴾ قَد أفادَ تَوزيعَ النَّفيِ على كُلِّ واحِدٍ بعَينِهِ، وهَذا أبلَغُ في التَّنزيهِ والاستِقصاءِ، مع إفادةِ الاهتِمامِ بنَفيِ كُلٍّ مِنَ اللَّغوِ والتَّأثيمِ على حِدَةٍ، فكُلُّ واحِدٍ مِنهُما مَمنوعٌ بذاتِهِ، لا على التَّبَعِ، ممّا يُشعِرُ بأنَّ نَقاءَ الجَنَّةِ شامِلٌ لِجَوارِحِ السّامِعِ ومَعانيهِ، فلا لَغوٌ يُزعِجُهُ، ولا إثمٌ يُؤَثِّمُهُ.

تقريرُ المدح بنفي الذَّمِّ وتوكيدِ نعيم الكرامة السَّمعيَّة

نوع الاستثناء وبلاغته:

في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، أتبع بذكر نعمة أخرى من الإنعام بالمسموع الذي يُفيد الكرامة؛ لأنَّ الإكرام لذَّةٌ روحيَّةٌ يُكسبُ النَّفسَ عزَّةً وإدلالًا بقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، وهو استثناء من (لغوًا وتأثيمًا) بطريقة توكيد الشَّيء بما يشبه ضدَّه المشتهر في البديع باسم توكيد المدح بما يُشبه الذَّمَّ[1]، وله موقع عظيم من البلاغة كقول النّابغة:

وَلا عَيبَ فيهِم غَيرَ أنَّ سُيوفَهُم... بِهِنَّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائِبِ[2].

فالاستثناء متَّصل ادِّعاءً وهو المعبَّر عنه بالاستثناء المنقطع بحسب حاصل المعنى؛ لأنَّ سلامًا ليس من اللَّغو، وعليه فإن انتصاب ﴿قِيلًا﴾ على الاستثناء لا على البدليَّة من ﴿لَغْوًا﴾[3]، فهو استثناءٌ منقطع عند جمهور المحقِّقين من المفسّرين، وهو الأليق بسياق الثَّناء والتَّنزيه. فالمعنى: لا يسمعون فيها شيئًا من اللَّغو، ولا ما يوجب إثمًا، لكن يَسمعون قولًا كريمًا، فيه طيبُ الأُنس، وصفاءُ التَّحيّة، وهو قولُ: سلامًا سلامًا.

بلاغة التَّشويق وتفخيم النَّعيم السَّمعيّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 297.

(2) النّابغة الذّبيانيّ، ديوان النّابغة، ص: 44، والعسكريّ، الصّناعتين، ص: 324، والباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 107.

(3) حسن طه الحسن، الاستثناء في القرآن الكريم، ص: 85.

فنُّ توكيد المدح بما يُشبه الذَّمَّ:

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ تَوكيدُ المَدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ[1]. "ومنه قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، فإنَّ النّاس استشكلوا وجه الاستثناء مع أنَّهم لا يذوقون فيها الموت مطلقًا، ومقتضى استثنائها من النَّفي أنَّهم يذوقونها في الجنَّة وليس كذلك"[2]، فإنَّ الموتةَ الأولى هي في الدُّنيا، فاستثناؤها على بابِ استحالة وقوع سواها، والاستثناء بمعنى (سوى)، وهوَ من أرقَى أساليبِ التَّعبيرِ في القُرآنِ الكَريمِ، إذ يُعطي المَعنَى قوَّةً في الإثباتِ مَعَ بُلوغِ المَدحِ غايَتَهُ في الإثارَةِ والتَّنويهِ.

نفي الأدنى تنبيهٌ على نفي الأعلى

دلالة استعمال ﴿قِيلًا﴾:

آثر النّظمُ الكريمُ استعمال ﴿قِيلًا﴾ لا (قولًا)؛ للإشارة إلى أنَّ القيل لا يُسمع فكيف بالقول، فهو نفيٌ للأدنى للتّنبيه على الأعلى، ثمَّ جاء التّكرار في قوله: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ تثبيتًا للمعنى، وزيادةً في الإيناس، على طريقة العرب في توكيد ما يسرّهم. ويكون "التَّوكيد فيه من وجهين: على الاتِّصال في الاستثناء والانقطاع"[3]، وقد أتى هذا الاستثناءُ منقطعًا على جهةِ الامتنانِ والتَّشريفِ، إذ يُفهمُ منه: لا يسمعونَ فيها قولًا يَنبو عن الذَّوقِ أو يجرحُ السَّمعَ، إلّا قولًا هو من أصفى ما يُقالُ، سلامٌ من عندِ اللّهِ، أو من بعضِهم لبعضٍ، يفيضُ من ألسنتِهم كما يفيضُ السَّلامُ على قلوبِهم، مُكرّرًا للتَّوكيدِ، ودليلًا على الدَّوامِ.

قصر المسموعات على السَّلام

دلالة البدليّة في قوله: ﴿سَلَٰمًا﴾:

إنَّ قَولَهُ تَعالَى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ يَحمِلُ في بنيَتِهِ نَكهَةً بَلاغيَّةً

(1) النّابغة الذّبيانيّ، ديوان النّابغة، ص: 44، والعسكريّ، الصّناعتين، ص: 324، والباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 107.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 51.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 48.

دَقيقَةً تَتَمَثَّلُ في البَدَليَّةِ الَّتي فيها، فقوله تعالى: ﴿سَلَٰمًا﴾ بَدَلٌ مِن ﴿قِيلًا﴾، فهيَ في مَقامِ بَدَلِ بَعضٍ مِن كُلٍّ أو بَدَلُ اشتِمالٍ، فـ ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّل مقول ﴿قِيلًا﴾؛ أي هذا اللَّفظ الَّذي تقديره: سَلمنا سَلامًا، فهو جملة محكية بالقول[1]. والقَصدُ مِن ذَلِكَ تَحديدُ مَعنَى القيلِ المُستَثنَى وتَحديدُ نَوعِهِ، فكَأنَّهُ قيلَ: لا يُسمَعُ فيها إلّا كَلامٌ مِثلُ السَّلامِ.

فَإثباتُ (قيلٍ) في الجَنَّةِ بَعدَ نَفيِ اللَّغوِ والتَّأثيمِ، لا يُقصَدُ بِهِ أيُّ كَلامٍ، بَل كَلامٌ مَعروفٌ مَحمودٌ، فجاءَ ﴿سَلَٰمًا﴾ ليُبَيِّنَ حَقيقَةَ ذَلِكَ القيلِ، وذَلِكَ أبلَغُ في المَدحِ، فكَأنَّ الكَلامَ المَسموعَ في الجَنَّةِ كُلَّهُ سَلامٌ وطُمَأنينَةٌ.

وَفي اختيارِ البَدَلِ دونَ العَطفِ قَصرٌ، أي: لا يُسمَعُ فيها إلّا هَذا النَّوعُ مِنَ القَولِ، فهوَ الَّذي يُطلَقُ عَلَيهِ القَولُ في الجَنَّةِ، وفيهِ إشعارٌ بتَنَزُّهِ الجَنَّةِ تَمامًا عَن كُلِّ كَلامٍ يَشينُ المَجالِسَ، أو يُنَغِّصُ سَماعَ النَّعيمِ.

تنويع التَّكريم وتثبيتٌ للأمن الأبـديِّ في دار السَّلام

غرض تكرار ﴿سَلَٰمًا﴾:

تَكرار قَولِهِ تَعالَى: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ يَحمِلُ في طَيّاتِهِ تَوكيدًا لِمَعنَى السَّلامِ وتَعظيمًا لِشَأنِهِ، فهوَ تَكرارٌ لِلتَّفخيمِ والتَّثبيتِ، كَما هوَ المَعهودُ في أُسلوبِ العَرَبِ في المَواضِعِ الَّتي يُرادُ فيها تَعليقُ المَعنَى بالنَّفسِ وإدخالُهُ في القَلبِ مَدخَلَ التَّسليَةِ والطُّمَأنينَةِ.

فَإذا كانَ ﴿سَلَٰمًا﴾ هوَ الكَلامُ الواحِدُ الَّذي يَسمَعُهُ أهلُ الجَنَّةِ، فتَكرارُهُ يُفيدُ أنَّهُ لا يُقالُ لَهُم إلّا ذَلِكَ، ويُسمَعُ مِرارًا وتَكرارًا، ففي ذَلِكَ إشعارٌ بدَوامِ الأمنِ والسَّلامِ، وأيضًا: تَكرارُ ﴿سَلَٰمًا﴾ في صيغَةِ النَّكِرَةِ يُفيدُ تَعدُّدَ أنواعِ السَّلامِ ووُجوهِهِ، ممّا يُفيدُ التَّنويعَ في أساليبِ التَّكريمِ والتَّلطيفِ.

يُلحظ في الثّلّة الـتّـوافـق فـي الـصِّـفـات، والجماعة أعـمُّ دلالةً

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 297.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ثُلَّة) و(جماعة):

الثُّلَّة في اللُّغة: هي الفرقةُ القليلة أو الكثيرة من النّاس، ولكنَّها تُستعمل في الأكثر لما كان نخبةً مختارة، ذات اجتماعٍ وانضباط، وقد تُطلق أيضًا على جماعة الخيل، ثمَّ نُقلت للدَّلالة على الجماعة الَّتي يجمعها غرضٌ أو شأنٌ رفيع، لا سيّما إذا كانت مُميّزةً في حالها أو مقامها.

أمّا (جماعةٌ) فهي في أصل الوضع: اسمٌ يُطلق على كلِّ جمعٍ من النّاس، كبيرًا كان أو صغيرًا، منتظمًا أو متفرّقًا، دون أن يحمل بالضَّرورة دلالة على الشَّأن أو المقام. فهي لفظٌ عامٌّ من حيث الدَّلالة، لا يُشعر وحده بما يُشعر به لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ من انتقاءٍ أو رفعةٍ.

الكأس تُقال عند ملئها بالشّراب والكوب خلاف ذلك ولما لا يكون له عروة

الكوب والكأس:

الكَأسُ مؤنثة قال الله تعالى ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ﴾ [الصافات: 45 - 46] قال ابن الأعرابي: لا تُسمَّى الكأس كأسًا إلّا وفيها الشَّراب[1]، وأمّا إذا خلا من الشَّرابِ، فلا يُسمّى كأسًا، بل يُقالُ له: كوبٌ إن لم يكن له عروة، فإن كانت له عروةٌ سُمّي: قدَحًا أو إبريقًا.

فالكأسُ يُذكر عند وصفِ الشّرابِ ومقامِ الشّربِ، وأمّا الكوبُ فيُذكر عند ذكرِ الأواني المعدّة للشّربِ. وهذا ما نبّه عليه القرآنُ بدقَّةِ استعمالِه، حيثُ قال تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾. أي أوانٍ مُعدّةٍ ومهيّأةٍ، ثمَّ قال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي كأسٍ فيها شرابٌ بعينه، جارٍ سائغٌ. والتَّقديمُ للأكوابِ والأباريقِ يُراعي التَّدرُّج في المشهدِ التَّصويريّ: فالأواني حاضرةٌ، ثمّ الشَّرابُ يُقدَّمُ في الكأسِ، وذلك من دقّة البيانِ وتمام التَّصويرِ.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 586.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"